

شرح نصيحة الشيخ حماد بن الأيمن المجلسي

رحمه الله تعالى

شرح

محمد بن سعيد ابن طوق المري

الإبرازة الثانية

- (١) (بُنِيَ إِنَّ الْبِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ) دُونَكَ مِنْهُ ذَا الَّذِي أُبَيِّنُ
- (٢) نَصِيحَةً مِنْ وَالِدٍ حَفِيٍّ بِكَ، هُدَيْتَ الرُّشْدَ مِنْ بُنْيِ
- (٣) شَمَّرَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ خَالِصَ الْأَعْمَالِ مِنَ النِّفَاقِ
- (٤) الْأَدَبِ الْأَدَبِ ثُمَّ الْأَدَبُ الْا وَالْعَمَّةُ، وَالْأَخَ الْكَبِيرُ
- (٥) وَالْخَالُ فِيهِ لَكَ مِنْ كِفَايَةٍ: وَالشَّيْخُ إِنَّ الشَّيْخَ بِالْبِرِّ جَدِيرُ
- (٦) ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ...﴾ الْآيَةُ قَالَ الزُّبَيْرُ: «مَنْ أَرَادَ...» الْأَثَرَا
- (٧) وَكُلُّ مَنْ سَمَا عَلَيْكَ تُكْرِمُهُ وَكُلُّ مَنْ صَغُرَ عَنْكَ تَرْحُمُهُ
- (٨) أَمَا رَوَيْتَ قَدَمًا أَوْ حَدِيثًا: «وَلَا تَزَالُ أُمَّتِي...» الْحَدِيثَا!
- (٩) وَلَا تَكُنْ عَلَى الْمَوَالِي فَاحِشَا وَأَخَذَرُ عَلَى الْحَقِيرِ أَنْ تُنَاقِشَا
- (١٠) وَإِنْ إِلَى النَّادِي انْتَدَيْتَ فَلْتَكُنْ عَنِ الْخَنِ أَصَمَّ، لِلْخَيْرِ فَطُنْ
- (١١) وَإِنْ يَخُوضُوا فِي الْهُدَى فَانْتَبِهَنْ وَلَا تُصَاحِبَنْ، وَلَا تُقَهِّقْهُنَّ
- (١٢) وَالصَّبْرُ، فَالصَّبْرُ مَرِيرُ الْمُزْدَرَدِ مُدْمِنُهُ حَرٌّ بَنِيْلٍ مَا قَصَدُ
- (١٣) «أَخْلَقَ بِذِي الصَّبْرِ...» رَوَوْهُ وَارْتَضِي «رُمْتُ الْمَعَالِي فَاِمْتَنَعَنْ...» لِلرَّضِي
- (١٤) وَإِنْ أَسَا وَأَحْسَنَ ابْنُ الْعَمِّ فَاَنشِدْ لَهُ: «إِذَا أَحْسَنَ ابْنُ الْعَمِّ...»
- (١٥) بِالشَّيْءِ جُدْ عَلَى الْعَشِيرِ، عَقَّا عَنْ شَيْئِهِمْ، وَعَنْ أَذَاهُمْ كَفَّا
- (١٦) «لَسْتُ لِقَوْمِي...» لِلزُّبَيْرِيِّ أَنْشِدِ ثُمَّ إِلَى الْحِلْمِ اِزْدَلِفْ لِتَرْشُدِ
- (١٧) فَالْحِلْمُ خَيْرٌ مَا ارْتَدَاهُ السَّيِّدُ «لَنْ يُدْرِكَ الْمَجْدَ...» لِذَاكَ يَشْهَدُ
- (١٨) فَازْدَنْ بِهِ فَالْحِلْمُ زَيْنُ الظُّرْفَا وَ(الْعِلْمُ نِعَمَ الْمُقْتَنَى وَالْمُقْتَفَى)
- (١٩) طَلَبُهُ فَرِيضَةٌ، وَأَفْرَضُهُ (عِلْمُ مُهِمَّكَ، بِهِ ابْدَأْ تَقْبِضُهُ
- (٢٠)

- فَقُوَّتُهُ الْفَقُّهُ، وَمَلَحُهُ الَّذِي (٢١)
- وَأُسُّهُ إِدَامُهُ تَحْقِيقُهُ (٢٢)
- لَهُ تَعَرَّبٌ، وَتَوَاضَعٌ، وَاتَّبِعَ (٢٣)
- حَتَّى تَرَى حَالَكَ حَالِ الْمُنْشِدِ (٢٤)
- وَأَقْصِدْ بِهِ وَجْهَ الَّذِي أَنْشَاكَ (٢٥)
- لِلضَّيْفِ هَيِّئْ مَنْزِلًا رَحِيبًا (٢٦)
- عَنْهُ أَكْثِمِ الْأَكْدَارَ وَالْمَصَائِبَ (٢٧)
- إِلَى مَسِيرِهِ، وَشَـيْءٌ زَوِّدِ (٢٨)
- وَاخْذُمُهُ نَفْسَكَ، رُويَ أَنَّ الْخَلِيلَ (٢٩)
- وَأَجْمَلِ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَمُوتَ (٣٠)
- وَإِنْ أَبَتْ عَنْكَ فَأَنْتَ الْأَعْلَى (٣١)
- قَوْلُ الزَّمْخَشَرِيِّ: «وَمُذْ أَفْلَحَ...» (لا) (٣٢)
- أَوْ سَاعَدْتَكَ فَاقْتَصِدْ فِي الْمَالِ (٣٣)
- وَاصْرِفْهُ فِي حُقُوقِهِ مُتَثَلًا (٣٤)
- قَبْلَ السُّؤَالِ اسْخُ لِمَنْ أَتَاكَ (٣٥)
- فَهَلْ جَوَابُ هَاتِ غَيْرُ هَاكَ (٣٦)
- يُصْلِحُهُ النَّحْوُ، جَهُولُهُ انْبِذْ
- سِيرَةً خَيْرَ وَاجِبٍ تَصْدِيقُهُ
- وَجُعْ، وَهْنٌ، وَاعْصِ هَوَاكَ، وَاتَّعِ
- «لَوْ أَنَّ سَلَمَى أَبْصَرْتَ تَخَدُّدِي...»
- وَلَا تُثَارِ فِيهِ مَنْ نَاوَاكَ
- وَلَا قَيْنُهُ الْبَشَرَ وَالتَّرْحِيبَا
- وَأَرْجُرْ أَهَالِيكَ عَنِ التَّصَاخُبِ
- بِمَا تَيْسَّرَ، وَفِي السُّؤْرِ ازْهَدْ
- أَوْحَى بِذَا إِلَيْهِ رَبُّهُ الْجَلِيلَ
- (إِجْمَالٌ مَنْ تَجَمَّلًا تَجَمَّلَا)
- لِيَهْنِكَ الْإِبَاءُ وَهِيَ النُّزْلَى
- تَعْدِلْ بِهِ فَهُوَ يُضَاهِي الْمَثَلَا
- وَاعْدُ عَنِ الشُّبْهِ لِلْحَلَالِ
- لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا... وَلَا...﴾
- وَإِنْ يَكُنْ عَجَلٌ فَاسْتَعْطَاكَ
- تَمَّتْ هُنَا نَصِيحَتِي إِيَّاكَ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين^(١).

أما بعد، فهذه مدارس منظومة رشيقة المبنى، جليلة المعنى، تفيض بالنصح والتذكير، والهداية والتبصير، ضمّنها نازمها النصائح الغالية، والمواعظ العالية، والأخلاق الفاضلة، والآداب الكاملة، إذا نظرت فيها علمت أن مثلها لا يُترك بلا مدرسة، فهي من خير شعر الوصايا وأبلغه. وقد قيل:

وما كلُّ ذي لبٍّ بمؤتيك نصحه وما كلُّ مؤتٍ نصحه بلبيبٍ
وأنت الآن قد رزقك الله لببًا يؤتيك نصحه، فما عليك إلا أن تحتفي بنصحه
وتقبل عليه.

وهذه المنظومة هي نصيحة العلامة الشيخ حماد بن أَلَمِين -هكذا ينطق اسمُه أهلُ
قُطره بفتح الهمزة واللام- المجلسي الشنقيطي.
وقد كان على قدر عالٍ من المعرفة بالعلوم الشرعية، ولا سيما السيرة والأدب
والأنساب، فقد كانت له في هذه العلوم اليد الطولى، يظهر هذا لمن نظر في شرحه
على عمود النسب وشرحه على نظم الغزوات.
وهذه النصيحة دليل ناطق على رفعة أدبه وصلاح نفسه.
توفي -رحمه الله- سنة ست وخمسين ومئتين وألف.

^(١) أصل هذه الأوراق تفريغ لشرح صوتي على نصيحة الشيخ حماد، وقد اطلع الشارح على هذه الأوراق قبل نشرها فراجعها وأعاد صياغة مواضع منها.

[رابط الشرح الصوتي](#)

[رابط آخر للشرح الصوتي](#)

(بُنِيَ إِنَّ الْبِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ) (١) دُونَكَ مِنْهُ ذَا الَّذِي أُبَيِّنُ

نَصِيحَةً مِنْ وَالِدٍ حَفِيٍّ (٢) بِكَ، هُدَيْتَ الرُّشْدَ مِنْ بُنْيَ

بُنْيَ: هذا تصغير لـ (ابني) باتصال ياء المتكلم بالاسم، يجوز فيها بُنْيَ بالكسر وبُنْيَ بالفتح، وقد قُرئَ بهما في المتواتر.

قد يكون الناظم أراد الابن حقيقة فهو يوجه النصيحة لأحد أبنائه أو ادعاءً لقصد الاستعطاف وقبول النصيحة فهو يوجهها لأبناء المسلمين.

إِنَّ الْبِرَّ: البرّ: اسم جامع لكل خير.

شَيْءٌ هَيِّنٌ: خفيفٌ سهل.

دُونَكَ مِنْهُ ذَا الَّذِي أُبَيِّنُ: دونك تقال في الإغراء، وهي اسم فعل أمر بمعنى خذ. أي: خذ هذا الذي أوضحه لك.

نَصِيحَةً: النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الخير للمنصوح له، وإرشاده إلى مصالحه.

مِنْ وَالِدٍ حَفِيٍّ بِكَ: أي مبالغٍ في إكرامك والعناية بأمرك. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.

هُدَيْتَ الرُّشْدَ مِنْ بُنْيَ: هُديت: وُفقت. الرشد: الصلاح، وهو ضد الغي والضلال. فالناظم -رحمه الله تعالى- هنا ينصح لابنه -حقيقةً أو ادعاءً- وهو أشفق الناس عليه، فهو حقيق بأن يمنحه أفضل ما يعرف، ويتحفه بلباب عقله وصفو رأيه. وبامثال نصيحة الوالد الشفيق تحصل للابن السعادة والحياة الطيبة.

والنصح من سنة الأنبياء والمرسلين، أخبرنا الله تعالى عن نوح -عليه السلام- أنه قال لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وعن هود -عليه السلام- أنه قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾،

وعن صالح -عليه السلام- أنه قال: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾،
وعن شعيب -عليه السلام- أنه قال: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ
لَكُمْ﴾، وهو من سنة من سار على نهجهم من العلماء والصالحين. فهذا مؤمن آل
فرعون قال لموسى -عليه السلام-: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾، وفي صحيح
مسلم^(١) عن تميم بن أوس الداري -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه
وسلم- قال: «الدين النصيحة» والمعنى: عماد الدين وقوامه النصيحة.

وسار على ذلك العلماء، فهذا أبو الوليد الباجي له نصيحة لولديه ذكر فيها لهما
أنه لا أحد أنصح للولد من والده، وأبو حامد الغزالي له نصيحة لأحد طلبته
المتقدمين اسمها "أيها الولد"، وابن الجوزي له نصيحة كتبها لابنه اسمها "لفتة الكبد
في نصيحة الولد" والإلبيري أبو إسحاق نصح لأبي بكر في التائبة التي مطلعها:
تَفْتُ فَوَادَكَ الْأَيَّامُ فَتًا وَتَنَحَّتْ جَسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا
وفيهما قوله:

أَبَا بَكَرَ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ لَوْ عَقَلْنَا
إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا مَطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا
وفيهما قوله:

وَإِنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نَصَحًا وَمَلْتَ إِلَى حَطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا
فَسَوْفَ تَعَصَّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا وَمَا تَغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا
وفي قوله: **بَنِي إِنْ الْبَرَّ شَيْءٌ هَيْنَ** تضمين.

والتضمين: أن يذكر الشاعر في شعره شيئاً من شعر غيره مع التنبيه على أنه لغيره
إن لم يشتهر عند البلغاء، ودون تنبيه إن كان مشهوراً. وقد أخذه من قول الراجز:
بَنِي إِنْ الْبَرَّ شَيْءٌ هَيْنُ الْمَنْطِقِ اللَّيْنُ وَالطُّعْمُ

^(١) برقم (٥٥).

وهو من شواهد العروضيين على الإكفاء، والإكفاء عيب من عيوب القوافي، وهو اختلاف حرف الرَّوِّيِّ مع قرنه في المخرج، والنون والميم حرفان متقاربان في المخرج.

شَّمِّرْ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ (٣) خَالِصَ الْأَعْمَالِ مِنَ النَّفَاقِ

حث الناظم -رحمه الله تعالى- في هذا البيت على أمرين:

الأول: التشمير إلى التحلي بالأخلاق الكريمة والجد في تحصيلها.

والثاني: الإخلاص لله رب العالمين.

والدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين كما يقول ابن القيم^(١).

ويشهد لهذا قوله -صلى الله عليه وسلم-: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خَلْقًا»^(٢).

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»، وفي رواية «مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»^(٣).

وحسن الخلق يكون مع الله -تعالى- بامتثال شرعه وبذل الجهد في تحقيق العبودية.

ويكون مع الخلق، وقد وصفه ابن مبارك بقوله: "هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى"^(٤).

ومما يحمل العبد على التحلي بالخلق الحسن أن ينظر فيما ورد في فضله.

لن تجد شيئاً أثقل في ميزانك يوم القيامة من حسن الخلق، قال -صلى الله عليه

(١) مدارج السالكين (٢/٢٩٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢) وقال: حسن صحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والحاكم (٤٢٢١)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠٠٥).

وسلم-: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق»^(١).

وقال -صلى الله عليه وسلم-: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»^(٢).

جلس ابن مسعود -رضي الله عنه- في السوق يتتاع طعاما، فابتاع ثم طلب الدراهم -وكانت في عمامته- فوجدها قد حُلَّت. فقال: لقد جلست وإنها لمعي. فجعل أصحابه يدعون على من أخذها ويقولون: اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها، اللهم افعل به كذا. فقال عبد الله: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها، وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه^(٣).

وسأل رجل النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، كم نغفو عن الخادم؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: «اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة»^(٤).

وأولى الناس بحسن الخلق طلبة العلم، فإنهم القدوة لغيرهم.

والعلم إن لم تكتنفه شمائلٌ تُعليه كان مَطِيَّةَ الإخفاقِ
لا تحسبن العلمَ ينفعُ وحدهُ ما لم يُتَوَّجَ رَبُّهُ بِخلاقِ
أي بنصيب وافر من الخير والصلاح

البيتان لحافظ إبراهيم^(٥) من قصيدة يقول فيها:

إني لَتُطْرِبُنِي الحِلَالُ كَرِيْمَةً طَرَبَ الغَرِيبِ بِأُوبَةٍ وتلاقي
وتهزني ذكرى المروءة والندى بين الشمائل هِزَّةَ المشتاقِ
ويقول:

فإذا رُزِقْتَ خَلِيقَةً محمودَةً فقد اصطفاك مقسّم الأرزاقِ

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، والترمذي (٢٠٠٣)، وصححه الألباني.

(٣) إحياء علوم الدين (١٨٤/٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٥١٦٤)، وصححه الألباني.

(٥) انظر: ديوانه ص(٢٧٩).

والثاني مما حث عليه الناظم: تحقيق الإخلاص لله رب العالمين.
قال رحمه الله: **خالص الأعمال من التفاف** والمعنى شمر حال كونك مصاحباً
الإخلاص في كل ما تفعل.

وحقيقة الإخلاص توحيد المراد فلا يزاحمه مراد ثاني^(١)
فهو تصفية القلب من إرادة غير الله تعالى.
العمل صورة والإخلاص روح - كما يقول ابن الجوزي^(٢) - إذا لم تخلص فلا تتعب.
لو قطعت سائر المنازل لم تكن حاجاً إلا بشهود الموقف.
والزم طلاب العلم بالإخلاص لكي ترى مناهج الخلاص^(٣)
من طلب العلم للعمل كسره العلم، وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس
والإفتاء والفخر والرياء تحامق، واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه العجب، ومقتته
الأنفس **﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾** **﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾** قاله الذهبي في
السِّيَر^(٤).

والنية اجعل لوجه الله خالصة إنَّ البناء بدون الأصل لم يقيم
ومن يكن ليقول الناس يطلبه أخسر بصفقته في موقف الندم
ومن به يبتغي الدنيا فليس له يوم القيامة من حظ ولا قسم^(٥)
وأول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة: رجل تعلم العلم ليقال عالم وقد قيل،
ورجل أنفق ليقال جواد وقد قيل، ورجل قاتل ليقال شجاع وقد قيل^(٦).

^(١) البيت رقم (٣٤٧٥) من نونية ابن القيم الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (٧٤٩/٣).

^(٢) اللطف في الوعظ ص(١٠).

^(٣) البيت (٢٨) من نصيحة الهلالي.

^(٤) (١٩٢/١٨)

^(٥) الأبيات (٦٦، ٦٧، ٦٨) من المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية للعلامة حافظ الحكمي - رحمه الله -.

^(٦) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٢).

حديث: قد قيل بُعِيدَ لِيُقَالَ أدهش كلَّ عاقلٍ ذاك المآل^(١)

يُذكر أن ملكًا كان يحب المحمدة والرفعة في قلوب الخلق أمر ببناء مسجد ونهى أن يشارك فيه أحد فلما قرب تمامه أمر أن يكتب اسمه بخط كبير على المسجد؛ لأنه يحب أن يُذكر، ما بناه إلا لهذا، فنام مرة ورأى في المنام اسمه يمحي ويكتب اسم امرأة، فدعا من يَعْبُرُ له رؤياه فقالوا: هذه أضغاث أحلام! ثم رأى الرؤيا نفسها ثانية وثالثة، فأمر بأن يؤتى بالمرأة التي رأى اسمها يكتب على المسجد فبحثوا فوجدوا امرأة بهذا الاسم فأتي بها، فقال لها: ألم أنه عن مشاركتي في البناء؟ فقالت: لم أشارك إلا أنني رأيت الدابة التي تحمل اللبن مادةً عنقها إلى دلو ماء تريد أن تشرب فقرّبت الدلو منها لتشرب وما زدت على ذلك. فكان في الرؤيا إشارة إلى أن عملها هو المرضي دون عمله.

وفي الحديث: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله -عز وجل- لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء!**»^(٢).

ومن هذه الأعمال طلب العلم، فطلب العلم عبادة، والعبادة لا تقبل إلا إذا كانت خالصة لله سبحانه وتعالى.

وبقدر صلاح نيتك تكون قوّتك في طلب العلم، وإذا صلحت نية المتعلم وهبه الله قوة لا تدرك بالأسباب الظاهرة، ومن وجد من نفسه نقصًا في هذا الباب فليحسن سياسة نفسه وليعجل بمداواتها؛ لئلا يسري هذا الداء فيه حتى يغلب عليه فتتعرس مداواته نفسه.

^(١) البيت للشيخ محفوظ محمد المصطفى البُصادي الأنصاري الشنقيطي حفظه الله وأدام نفعه وأجرى الخير على يديه.

^(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠)، وصححه الألباني.

وبوابة الإخلاص بل بوابة تحقيق كل عبودية صدق الاستعانة بالله تعالى، والتضرع إليه، قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١)
لن تحقق العبودية لله -تعالى- إلا بالاستعانة به.

الأدب الأدب ثم الأدب (٤) وَهُوَ أَنْ تَبَرَّ أُمَّا وَأَبَا

الأدب: مصدر أدب يَأْدِب إذا صنع صنيعاً ودعا الناس إليه فهو آدِب.
فهو في الأصل الدعوة إلى الطعام، والإطعام مرتبط بِخَصْلَةٍ عظيمة هي الكرم، لذا أطلق الأدب بعد ذلك على كرم الأخلاق.
قال ابن القيم: حقيقة الأدب: استعمال الخلق الجميل^(١).
وقال الحافظ ابن حجر: استعمال ما يُحْمَد قولاً وفعلاً^(٢).
الأدب: مفعول به لفعل محذوف وجوبا تقديره الزم.
والأدب الثاني توكيد لفظي.

ولما كان الأدب واسع المعنى شرع الناظم يسرد بعض ما يندرج تحت الأدب، وابتدأ بذكر بر الوالدين، وهو الإحسان إليهما وإدخال السرور عليهما.
وحق الوالدين أعظم الحقوق بعد حق الله -تعالى- وحق رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وقد قرن الله -تعالى- حقهما بحقه، فقال -تعالى-: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وقال -تعالى-: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾، وجعله النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل من الجهاد في سبيل الله^(٣).

(١) مدارج السالكين (٢/٣٦١).

(٢) فتح الباري (١٠/٤٠٠).

(٣) يشير إلى ما أخرجه البخاري (٥٢٧) ومسلم (٨٥) عن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: سألت النبي -صلى الله عليه وسلم-: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قال: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين» قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

وأخبر -صلى الله عليه وسلم- أن رضا الله حاصل للعبد إن رضي عنه والداه، وأن سخطه -تعالى- حال بالعبد إذا أسخط والديه. قال -صلى الله عليه وسلم-: **«رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد»**^(١).

والعقوق من كبائر الذنوب، بل من أكبر الكبائر، قال -صلى الله عليه وسلم-: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قالها ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين»** الحديث^(٢).

وضابط عقوق الوالدين: صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل تأذيًا ليس بالهين عرفاً.

وفي حديث عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **«نمتُ فرأيتني في الجنة فسمعت صوت قارئ يقرأ فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا حارثة بن النعمان»** فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **«كذلك البر كذلك البر»** وكان أبر الناس بأُمَّه^(٣).

وقد كان أبو هريرة -رضي الله عنه وعن أمه- مضرب المثل في بره بأُمَّه، كان إذا مر عليها في دخوله أو خروجه يقف على بابها ويقول: السلام عليك يا أمتاه ورحمة الله وبركاته -وأحق الناس بالسلام الكامل إلى وبركاته هي الأم-، فتقول: وعليك السلام يا بني ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربيتني صغيراً، فتقول: وأنت فجزاك الله خيراً ورضي عنك كما بررتني كبيراً^(٤).

هذه حالهم في برهم، فكيف حالك أنت؟
هناك أشياء يسيرة لا تتطلب منك شيئاً لكنها تملأ قلب الوالدين بالسرور والفرح.

^(١) أخرجه الترمذي (١٨٩٩)، وصححه الألباني.

^(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

^(٣) أخرجه أحمد (٢٥٣٣٧)، والنسائي في الكبرى (٨١٧٦)، وصححه الألباني.

^(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٤)، وحسن إسناده الألباني.

تعاهدهما بالرسائل الجميلة، ما يضر أحدنا أن يرسل رسالة دعاء لوالديه كل يوم وأن يسمعهما الكلام الجميل! متى آخر مرة أهديت فيها لوالديك؟ من لا خير فيه لوالديه فلا خير فيه للناس.

ولبعض الشعراء قصيدة عذبة يروي فيها قصة خيالية لغلام طائش استجاب لإغواءات المال مقابل التضحية بحياة أمه التي ظلت رحيمة به في حياتها وبعد مماتها، يقول:

أغرى امرؤ يوما غلاما جاهلا بنقوده حتى ينال به الوطر
قال: اتني بفؤاد أمك يا فتى ولك الدراهم والجواهر والدُّرَرُ
فمضى وأغرز خنجرا في صدرها والقلب أخرجه وعاد على الأثر
لكنه من فرط سرعته هوى فتدحرج القلب المعذب إذ عثرَ
ناداه قلب الأم وهو مُعَقَّرٌ ولدي حبيبي هل أصابك من ضرر؟
فكان هذا الصوت رغم حُنُوِّه غضبُ السماء على الغلام قد انهمر
ورأى فظيع جناية لم يأتمها أحد سواه منذ تاريخ البشر
وارتدَّ نحو القلب يغسله بما فاضت به عيناه من سيل العبر
ويقول: يا قلب انتقم مني ولا تغفر فإن جرمي لا تغتفر
واستلَّ خنجره ليطن صدره طعنا سيقى عبرة لمن اعتبر
ناداه قلب الأم: كُفَّ يدا ولا تذبح فؤادي مرتين على الأثر

يُذكر أن رجلاً ركبه شيطانه فأراد أن يتخلص من أمه خاصة بعد كبرها واختلافها مع زوجته، فحملها وذهب بها إلى فلاة تكثر فيها الذئاب، ووضعها هناك ورجع، وهو في طريق رجوعه عاد إليه عقله، وقال: ما الذي فعلته! فذهب يركض جهة أمه فلما رآها من بعيد غطى وجهه بثوبه من حيائه منها، فلم تعرفه، فنادته وقالت: يا

رجل يا رجل أدرك ابني فإنه ذهب في هذا الطريق وأنا أخاف أن تأكله الذئاب!
تقول هذا وهي تعلم أنه ما أتى بها هنا إلا ليتخلص منها.
والبرُّ باقٍ بعد موت الوالدين أو موت أحدهما فقد سأل النبي -صلى الله عليه
وسلم- رجلٌ فقال: يا رسول الله هل بقي من بر والديّ شيء أبرُّهما به بعد
موتهما؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: «نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما،
وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام
صديقهما»^(١). وفي إسناده ضعف إلا أن معناه صحيح.

وللْقَصَّار أبيات في الحث على زيارة الوالدين بعد موتهما -وُتَسَبَّ لغيره- يقول:
زُرْ وَالِدَيْكَ وَقِفْ عَلَى قَبْرَيْهِمَا فَكَأَنِّي بِكَ قَدْ نُقِلْتُ إِلَيْهِمَا
لَوْ كُنْتُ حَيْثُ هُمَا وَكَانَا بِالْبَقَا زَارَكَ حَبْوًا لَا عَلَى قَدَمَيْهِمَا
أَنْسَيْتَ عَهْدَهُمَا عَشِيَّةَ أُسْكُنَا دَارَ الْبَلَى وَسَكَنْتَ فِي دَارَيْهِمَا
مَا كَانَ ذَنْبُهُمَا إِلَيْكَ وَإِنَّمَا مِنْحَاكَ مُحْضُ الْوَدِّ مِنْ نَفْسَيْهِمَا
كَانَا إِذَا مَا أَبْصَرَا بِكَ عِلَّةً جَزَعَا لَمَّا تَشَكُّو وَشَقَّ عَلَيْهِمَا
كَانَا إِذَا سَمِعَا أُنِينَكَ أَسْبَلَا دَمْعِيهِمَا أَسْفًا عَلَى خَدَيْهِمَا
وَقَمْنِيَا لَوْ صَادَفَا لَكَ رَاحَةً بِجَمِيعِ مَا يَحْوِيهِ مَلِكُ يَدَيْهِمَا
فَلْتَلَحِّقْنَهُمَا غَدًا أَوْ بَعْدَهُ حَتْمًا كَمَا لَحَقَا هُمَا أَبْوَيْهِمَا
وَلْتَنْدَمَنَّ عَلَى فِعَالِكَ مِثْلَمَا نَدَمَا هُمَا أَيْضًا عَلَى فَعْلَيْهِمَا
بُشْرَاكَ إِنْ قَدَّمْتَ فَعَلًا صَالِحًا وَقَضَيْتَ بَعْضَ الْحَقِّ مِنْ حَقَيْهِمَا
فَاحْفَظْ بُنْيَ وَصِيَّتِي وَاعْمَلْ بِهَا فَعَسَى تَنَالَ الْفَوْزَ مِنْ بَرِّهِمَا

وَالْعَمَّ وَالْعَمَّةَ، وَالْأَخَ الْكَبِيرَ (٥) وَالشَّيْخَ إِنَّ الشَّيْخَ بِالْبَرِّ جَدِيرٌ

(١) أخرجه أحمد (١٦٠٥٩)، وأبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤).

حث هنا على أمرين الأول: البر بالعم والعمة والأخ الكبير. **والعم** معطوف على قوله: **أُمًّا** في قوله: **وهو أن تَبَرَّ أُمًّا وَأَبًا**. والثاني: البر بالشيخ.

أما الأول فهو راجعٌ إلى صلة الرحم؛ وهي الإحسان إلى الرحم بإيصال ما أمكن من الخير إليهم، ودفع ما أمكن من الشر عنهم.

وقد تكاثرت الأدلة في وجوب صلة الرحم والحث عليها، فصلة الرحم علامة الإيمان بالله واليوم الآخر، قال -صلى الله عليه وسلم-: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه»**^(١).

وأخبر -صلى الله عليه وسلم- أن من وصل رحمه وصله الله برحمته ولطفه وإحسانه قال -صلى الله عليه وسلم-: **«الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطع الله»**^(٢).

والثاني: البر بالشيخ قال: **والشيخ إنَّ الشيخَ بالبرِّ جدير** وأهل العلم لهم حق عظيم على الأمة، وقد نقل ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قال: الشيخ والمعلم والمؤدب أبو الروح، والوالد أبو الجسم^(٣). وشاهد هذا في القرآن: في قراءة أبي بن كعب -رضي الله عنه-: "الني أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم".

وهذا المعنى يؤديه قوله -تعالى- في تمام الآية: **﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾** إذ ثبوت أمومة أزواجه لهم فرعٌ عن ثبوت أبوته^(٤).

وشاهده في السنة قوله -صلى الله عليه وسلم-: **«إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم»**^(٥). فالعلماء لهم حق عظيم على الأمة أثبتته الشريعة وأمرت برعايته.

^(١) أخرجه البخاري (٦١٣٨).

^(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥).

^(٣) مدارج السالكين (٧٠/٣).

^(٤) انظر: المصدر السابق.

^(٥) أخرجه أبو داود (٨)، والنسائي (٤٠)، وابن ماجه (٣١٣)، وحسنه الألباني.

والخال فيه لك من كفايته: (٦) ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ...﴾ الآية
هو الذي منه تنال المَفْخَرَا (٧) قَالَ الزُّنَيْرُ: «مَنْ أَرَادَ...» الأثر

حث الناظم - رحمه الله تعالى - هنا على بر الخال وإكرامه وذكر أنه يكفي من الحث على البر به كونه يعتبر أبا، وقد عرفت عظيم حق الأب، واستدل الناظم بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ووجه الاستدلال بهذه الآية: أنَّ المقصود بأبويه أبوه وخالته، وقد فسر الآية بهذا من السلف السُّدِّي وابن زيد، وعليه جمهور المفسرين^(١) قالوا: لأن أمه كانت قد ماتت قديما.

والقول الآخر في تفسير الآية ما قاله محمد بن إسحاق قال: المقصود أبوه وأمه. ورجحه ابن جرير الطبري^(٢) وابن كثير^(٣).

ووجهه: أنه حمل للآية على المعهود في استعمال الناس للأبوين، قالوا: ولم يقم دليل يدل على موت أمه، وظاهر القرآن حياتها. فالاستدلال بالآية مبني على ما عليه جمهور المفسرين من أن المراد بالأبوين في الآية الأب والخالة.

ويدل لهذا المعنى الذي ذكره الناظم ما في البخاري^(٤) عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «الخالة بمنزلة الأم». وروي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «إنما الخال والد». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق^(٥)، لكن الثابت ما في البخاري.

(١) انظر: التحرير والتنوير (٥٥/١٣).

(٢) في تفسيره (٣٥٢/١٣).

(٣) في تفسيره (٤١١/٤).

(٤) (٢٦٩٩).

(٥) انظر: الاستيعاب (١٢٢٣/٣)، والإصابة (٦٠٥/٤)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة (١٢٢٤/١٤).

وذكر في البيت الثاني أن الخال هو الذي يُنال منه ما يُفتخر به من الخصال الجميلة، والأخلاق النبيلة؛ لأن المرأة غالبًا إنما تلد مثل أخيها فيكون الولد كخاله. وقد قيل: الخلال تتبع الخال^(١).

قال الزبير: «من أراد...» الأثر يشير به إلى قوله في ابنه عبد الله مَقْدَمُهُ من إفريقية -وكان قد أبلَى في فتوحات إفريقية بلاءً حسناً- قال الزبير: من أراد أن يتزوج امرأة فلينظر إلى أبيها وأخيها فإنما تأتيه بأحدهما.

والمعروف في كتب التاريخ وغيرها^(٢) نسبة هذا القول إلى أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وأن الزبير -رضي الله عنه- قال: والله لكأني سمعت كلام أبي بكر الصديق وذكره. فيكون قول الناظم قال الزبير أي ناقلاً عن أبي بكر الصديق فهو من منقوله لا من قوله والله أعلم. وقوله: **الأثر** يريد به أكمل الأثر والألف للإطلاق.

وَكُلُّ مَنْ سَمَا عَلَيْكَ تُكْرِمُهُ ^(٨) **وَكُلُّ مَنْ صَغُرَ عَنْكَ تَرْحُمُهُ**
أَمَّا رَوَيْتَ قَدْماً أَوْ حَدِيثاً: ^(٩) **«وَلَا تَزَالُ أُمِّي...» الْحَدِيثُ!**
سما: أي ارتفع.

أما رويت: هذا استفهام تقريرى كأنه يقول لك: هذا الحديث المشار إليه شائع عند الجميع فينبغي أن يكون معلوماً عندك.

أما رويت نقلت **قدماً** قديماً في وقت بعيد أو **حديثاً** في وقت قريب. وبينهما طباق وهو من المحسنات المعنوية.

«وَلَا تَزَالُ أُمِّي...» الحديث: الحديث في آخر البيت بمعنى الخبر الذي أضيف إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

^(١) انظر: منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول -صلى الله عليه وسلم- (٤٥٠/٣).

^(٢) انظر: نسب قريش ص (٢٣٩)، تاريخ دمشق (١٨٢/٢٨)، والمنظم (٣٤٥/٤)، ورمّة الزمان (٤٣٥/٥).

وبين حديثاً في الشطر الأول والحديث في الشطر الثاني من أنواع البديع: الجناس، والجناس تشابه اللفظين في التلفظ مع اختلافهما في المعنى، وهو من المحسنات اللفظية وهو جناس تام.

«ولا تزال أمتي...» يشير به إلى «لا تزال أمتي بخير ما دام صغيرها يوقر كبيرها وكبيرها يرحم صغيرها» ذكره في بغية الراغبين^(١) ولم أقف عليه مسنداً بهذا اللفظ. وفي الباب أحاديث كثيرة في هذا المعنى. من ذلك قوله -صلى الله عليه وسلم-: «ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا»^(٢) يعني: حقّه.

والمراد: أن فاعل ذلك ليس من المؤمنين الذين قاموا بواجبات الإيمان. لما ذكر -رحمه الله تعالى- فيما تقدم من يجب بره وصلته ذكر هنا أن من الأدب توقير الكبير وإجلاله، ورحمة الصغير والشفقة عليه.

وقد ورد في السنة الحث على ذلك في أحاديث منها قوله -صلى الله عليه وسلم-: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(٣).

فيتعين على كل أحد أن يعطي الكبير حقه من الإجلال والتوقير، والصغير حقه من الرحمة والشفقة. ولقد أجاد من قال:

ارحم بني جميع الخلق كلهم وانظر إليهم بعين اللطف والشفقة
وقّر كبيرهم وارحم صغيرهم وراع في كل خلق حقّ من خلقه

^(١) بغية الراغبين في شرح نصيحة حماد بن المين للشيخ العلامة إياه بن محمد عالي بن نعمه المجلسي الشنقيطي ص(٥٩).

^(٢) أخرجه أحمد (٢٢٧٥٥)، وحسنه الألباني.

^(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وصححه الألباني.

ثم إن الكبر نوعان: حسي وهو التقدم في السن، ومعنوي وهو التقدم في العلم والفضل وإن كان صغير السن، فهذا الذي رفعه الله بالعلم ينبغي أيضا أن يُعطى حقه من التكريم، وأن تُعرف له درجته التي رفعه الله إليها. قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

وقد أحسن القائل:

فإنَّ كبير القوم لا علمَ عندهُ صغيرٌ إذا التفتَ عليه المحافلُ
وإنَّ صغير القوم والعلمُ عندهُ كبيرٌ إذا رُدَّتْ إليه المسائلُ

ولا تَكُنْ عَلَى الْمَوَالِي فَاحِشًا (١٠) **وَاحْذَرْ عَلَى الْحَقِيرِ أَنْ تُنَاقِشَا**

ولا تكن على الموالي: الموالي جمع مولى، والمولى يطلق على المالك والعبد والصاحب وابن العم والناصر والمحِب وله إطلاقات كثيرة.

وكل هؤلاء من الوَلِيِّ بمعنى القرب، فالباب كله راجع إلى القرب^(١).

فاحشا: الفاحش هو الذي يتكلم بالكلام القبيح.

نهى الناظم -رحمه الله- عن النطق بالكلام القبيح مع الأقارب، ولا مفهوم للأقارب وإنما خصهم بالذكر؛ لأن ذلك معهم أشد.

قال طرفة في معلقته:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على المرء من وقعِ الحسامِ المهندِ
والمسلم مأمور بأن لا يؤذي أي مسلم بلسانه، وكاللسان غيره من الجوارح.

وقد قال عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما-: «**لم يكن النبي -صلى الله عليه وسلم- فاحشا ولا متفحشا**»^(٢).

(١) انظر: مقاييس اللغة (١٤٢/٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٣٢١).

وقال -صلى الله عليه وسلم-: «ليس المؤمن بالطَّعَّان ولا اللَّعَّان ولا الفاحش ولا البذيء»^(١).

واللسان صغيرٌ جرمه، عظيمٌ جرمه، ومن تكلم في غير نفع ندم. ما إن ندمت على سكوتي مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا^(٢)

ولو يكون القول عند الناس من فضة ييضا بلا التباس إذا كان الصمت من عين الذهب فافهم هداك الله آداب الطلب^(٣) وقد قال يونس بن عبيد: ما من الناس أحد يكون لسانه منه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله^(٤).

ويحتمل أن يكون مراد الناظم بالموالي الأرقاء، فيكون نهيًا عن معاملة العبيد معاملة سيئة، وفي صحيح مسلم^(٥) عن أبي مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: كنت أضرب غلاما لي، فسمعت من خلفي صوتا «اعلم أبا مسعود، لله أقدر عليك منك عليه» قال: فالتفت فإذا هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله. قال: «أما لو لم تفعل للفتحك النار» أو قال: «لمستك النار».

واحذر على الحقير أن تناقشا: الحقير: التافه، والجار والمجرور على الحقير متعلق بالفعل تناقش.

أصل الكلام: واحذر أن تناقش على الحقير.

^(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٧)، وصححه الألباني.

^(٢) البيان والتبيين (٢٢٤/١).

^(٣) البيتان من أرجوزة أوردها ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٥٧٨/١) وذكر أنها أحسن ما رأى في آداب التعلم والتفقه من النظم.

^(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في الزهد (١١٢).

^(٥) (١٦٥٩).

والمناقشة: الاستقصاء في الحساب.

نهي الناظم -رحمه الله- عن المناقشة على الحقير التافه الذي لا قيمة له.
والمناقشة في مثل هذا والاستقصاء فيه ولا سيما مع الأقارب والأوداء معدودة من
البخل وخوارم المروءة، قال الحسن: ما استقصى كريم قط^(١).

وشاهد هذا في القرآن في صدر سورة التحريم فإنها نزلت في تحريم النبي -صلى الله
عليه وسلم- العسل على نفسه أو في تحريمه الجارية، -على قولين-، وقد قال النبي
-صلى الله عليه وسلم- لحفصة: لا تخبري أحدا، فلما أطلع الله على إخبارها
بذلك وإفشاء سره لم يستقص وإنما ذكر لها بعضا وسكت عن بعض، كما قال الله
تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ
عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ فالكريم لا يستقصي لا يقول: أنت فعلت
وفعلت، بل تكفي الإشارة وما زاد عليها قد يقلب الكلام من عتاب إلى تفرير
فيحصل خلاف المقصود.

ولله در الشاعر إذ يقول:

وسامح ولا تستوف حَقَّك كُلَّهُ وأبقِ فلم يستقصِ قط كريمُ
ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد كلا طرقي قصدِ الأمور ذميمُ

وَإِنْ إِلَى النَّادِي انْتَدَيْتَ فَلْتَكُنْ ^(١١) عَنِ الْخَنَى أَصَمُّ، لِلْخَيْرِ فَطُنْ
وَإِنْ يَخْوضُوا فِي الْهُدَى فَانْتَبِهَنَّ ^(١٢) وَلَا تُصَاحِبَنَّ، وَلَا تُثَقِّقْهُنَّ
النادي: مجلس القوم ومُتَحَدِّثُهُمْ. ولا يقال فيه نادٍ إلا والقوم مجتمعون. فإذا تفرقوا

زال عنه اسم النادي.

انتديت: حضرت النادي.

فلتكن عن الخنى أصم: الخنى: الفحش، أصم: الصمم انسداد الأذن وثقل السمع.

^(١) انظر: تفسير الثعلبي (٣٤٦/٩).

للخير فُطْن: الفِطنة الحَذق. يقال: هو فِطْنٌ وفُطِنٌ. وضم الطاء هنا أولى؛ لأنه على الكسر فيه اختلاف حركة الحرف الذي قبل الروي المقيد، وهو المسمى بسِنَاد التوجيه، لكنه عيب إذا كان بفتحة مع غيرها أما إذا كان الاختلاف بضمة مع كسرة فليس بعيب.

قال في مجدد العوافي:

وهكذا التوجيه ولكن إن قُرُنْ كسُرْ بضم فالتسناد قد حُسُنْ وإنما حسن؛ لأن الكسرة والضمة متعاقبتان، وفي البيت لطافة لاشتماله على التمثيل لمضمونه.

قُرُن: الحرف الذي قبل حرف الروي مكسور.

حُسُن: الحرف الذي قبل حرف الروي مضموم.

فهذا البيت بيان لمعنى سناد التوجيه وهو مثال له.

وإن يخوضوا: يقال: خاض القوم في الحديث إذا تفاوضوا فيه.

في الهدى: الرشاد.

فانتبهن: يقال: انتبه للأمر إذا فطن له.

ولا تصاخبن: يقال: تصاخب القوم إذا تصايحوا واختلطت أصواتهم.

ولا تقهقهن: القهقهة: الضحك بصوت.

يقول الناظم: إذا حضرت مجلس القوم فتغافل عما يكون فيه من نقص، ومن كلام غير لائق حتى تكون كأنك لم تسمعه.

وإذا خاضوا في الخير والهدى والأحاديث النافعة فلتكن مقبلا على هذا الخير متفههما له بلا رفع للصوت ولا قهقهة.

قال الإمام الشافعي: اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل^(١).

وقال أبو تمام:

^(١) حلية الأولياء (١٢٣/٩)، ومناقب الشافعي للبيهقي (١٩٨/٢).

ليس الغيُّ بسيدٍ في قومه لكنَّ سيِّدَ قومه المتغابي^(١)

وفي المثل: **تغافل كأنك واسطي** أصله: أن الحجاج أراد أن يبيي مدينة بين البصرة والكوفة، فكان يستخر أهلها في البناء، فكانوا يهربون وينامون في المسجد حتى يُظنوا غرباء، فيأتي الشرطي ويقول: يا واسطي فمن رفع رأسه أخذه، فلذلك كانوا يتغافلون فإذا جاء الشرطي وقال: يا واسطي لا يرفعون رؤوسهم، فقالوا في المثل: تغافل كأنك واسطي^(٢).

قال ابن الونان في الشمقمقية:

وكن كمثل واسطي غفلةً عن شتم ضارع وعتب سُقِّ^(٣)
الضارع: الضعيف، والسُّقِّ: المغتاب.

وقد أغلظ رجل في الكلام للأحنف بن قيس وقال: والله يا أحنف لئن قلت لي واحدة لتسمعن بدلها عشرًا فقال له الأحنف: إنك إن قلت لي عشرًا لا تسمع مني واحدة^(٤).

وقال رجل لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه-: لأسبنك سبًّا يدخل معك في قبرك. فقال: معك والله يدخل لا معي^(٥).

وقد صدق، فهذا السب من عمل الساب الذي يتبعه ويدخل معه قبره.

وقد شتم رجل الشعبي فقال الشعبي: إن كنت كاذبا فغفر الله لك، وإن كنت صادقًا فغفر الله لي^(٦).

ولصلاح الدين الصفدي في لاميته:

(١) ديوانه ص (٢٨).

(٢) انظر: مجمع الأمثال (١/١٤٥).

(٣) انظر: قطوف الرياح من زهر الأفنان شرح حديقة ابن الونان ص (١٥٤).

(٤) البداية والنهاية (١٢/١٧٢).

(٥) الكامل في اللغة والأدب (٣/٦١).

(٦) أخرجه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٣/١٦٢).

وإن بُليتَ بشخص لا خلاقَ له فكن كأنك لم تسمع ولم يُقلِ
 واستشعرِ الحلم في كل الأمور ولا تُسرِع ببادرةٍ يومًا إلى رجلٍ
 ثم حثَّ على الإقبال على الخير إذا نُطقَ به ونهى عن التصاحب والقهقهة.
 وقد قال أعرابي في الققعقاع بن شُورٍ - وكان الققعقاع جوادا كريما يضرب به المثل في
 حسن العشرة، وهو من التابعين - قال فيه أعرابي يصف أدبه في مجلسه^(١):
 وكنتُ جليسَ ققعقاعِ بنِ شُورٍ ولا يشقى بققعقاع جليسُ
 ضحكوك السن إن نطقوا بخيرٍ وعند الشر مطراقُ عبوسُ

وَالصَّبْرُ، فَالصَّبْرُ مَرِيْرُ الْمُزْدَرَدِ (١٣) مُدْمِنُهُ حَرٌّ بَنِيْلٍ مَا قَصَدَ
 «أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ...» رَوُوهُ وَارْتَضِي (١٤) «رُمْتُ الْمَعَالِي فَامْتَنَعَنْ...» لِلرَّضِي
 الصبر: حبس النفس، وهو هنا منصوب على الإغراء، مفعول به لفعل محذوف
 تقديره: الزم.

فالصبر: مبتدأ خبره ما بعده.

المُزْدَرَد: مصدر ميمي من ازدرد اللقمة إذا ابتلعها.

مريْر المزرد: مُرُّ الابتلاع، كناية عن صعوبته.

مدمنه: المدمن للشيء هو الملازم له المواظب عليه.

حر: حقيق وجدير.

بنيل ما قصد: بالوصول إلى ما أراه.

«أخلق بذِي الصبر...»: يشير به إلى قول الشاعر وهو محمد بن بشير^(٢) وهو من

شعراء الدولة الأموية يشير إلى قوله في أبيات:

أَخْلِقْ بِذِي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمنِ القرع للأبواب أن يلجأ

^(١) انظر: عيون الأخبار (٤٢٥/١)، والكامل في اللغة والأدب (١٤٣/١) ومجمع الأمثال (٢٤١/٢).

^(٢) انظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص(٨٢٣).

وقبله قوله:

لا تيأسنَّ وإن طالت مطالبةٌ إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
إن الأمور إذا انسدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
«رمت المعالي فامتنعن...» للرضي يشير به إلى قول الشريف الرضي وهو محمد بن
الحسين الحسيني، له نظم في الذروة حتى قيل: إنه أشعر قريش^(١) يشير إلى قوله:
رمتُ المعالي فامتنَعْنَ ولم يزل أبداً يمانعُ عاشقاً معشوقُ
فصبرتُ حتى نلتُهنَّ ولم أقل ضجرًا: دواءُ الفاركِ التطليقُ^(٢)

حث الناظم -رحمه الله تعالى- في هذين البيتين على التحلي بالصبر، ونبه على
صعوبة ذلك، وبَيَّنَّ حميدَ عاقبته. وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

الصبر مثل اسمه مرٌّ مذاقتهُ لكن عواقبه أحلى من العسل^(٣)
وقد أخبر الله -تعالى- أنه مع الصابر يوفقه ويعينه ويسدده، ولو لم يكن في الصبر
إلا هذا الفضل لكفى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وأخبر سبحانه أن الصابرين يصبُّ
عليهم الأجر صَبًّا دون عدٍّ ولا تقدير ﴿إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.
وما من فضيلة إلا وهي محتاجة إلى الصبر، لذا جاء ذكره في القرآن في أكثر من مئة
موضع، وقد قال شريح: إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات، أحمد
أن لم تكن أعظم منها، وأحمد إذ رزقني الصبر عليها، وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما
أرجو من الثواب، وأحمد إذ لم يجعلها في ديني^(٤).

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٨٥/١٧).

(٢) ديوانه (٤٥/٢).

(٣) انظر: مدارج السالكين (١٥٨/٢).

(٤) انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (١٥٨/١)، وسير أعلام النبلاء (١٠٥/٤).

وقال أحدهم: رأيت مرة أحد الصالحين وقد أصابته قرحة في إصبعه، فقلت له: ألا تشتكي؟ ألا تتألم؟ فقال ذاك الصالح: رأيت لو كانت في وجهي؟ رأيت لو كانت في لساني؟ رأيت لو كانت في عيني؟ يقول هذا الرجل: فما زال يقول لي رأيت؟ رأيت؟ حتى ظننت أن هذه القرحة أعظم نعمة أنعم الله بها عليه.

وكيف لا يشكر على المصيبة وهو يعلم أنه إن صبر وفاه الله أجره بغير حساب.

وقد قيل لبعض الصالحين - وكان قد أصابه جرح - : ألا يؤلمك؟ فقال: حلاوة أجره أذهب مرارة ألمه.

والصبر الذي حث عليه الناظم أعم من مجرد الصبر على البلاء فيدخل فيه الصبر على الطاعة وعن المعصية، ومن أكد الصبر الصبر على ما أنت عليه من طلب العلم والحفظ والمراجعة وحفظ الوقت والابتعاد عن قرناء السوء وعلى التغرب في طلب العلم فهذا كله يحتاج إلى صبر.

وقد قال الشاعر يوصي ابنه:

بُنِّي اجْتَهِدْ وَادْرُسْ وَزَاحِمْ وَنَافِسْ وَلَا تَتَجَمَّعْ فِي رَحَابِ الْمَدَارِسِ
وَكُنْ بَاحِثًا عَنْ حَلِّ كُلِّ عَوِيصَةٍ بِذَهْنٍ يُرَى مُسْتَيْقِظًا غَيْرَ نَاعِسٍ
وَكَسِّرْ جُمُوعَ اللُّهُوِّ وَاصْرِمْ حِبَالَهَا وَكُنْ فِي جُمُوعِ الْخَيْرِ أَوَّلَ جَالِسِ
وَجَانِبِ قَرِينِ السُّوءِ وَالزَّمِ بِعَادَهُ فَقُرْبُكَ مِنْهُ مُوقِعٌ فِي الْمَنَاحِسِ

وَإِنْ أَسَا وَأَحْسَنَ ابْنُ الْعَمِّ (١٦) فَأَنْشِدْ لَهُ: «إِذَا أَحْسَنَ ابْنُ الْعَمِّ...»
بِالشَّيْءِ جُدْ عَلَى الْعَشِيرِ، عَقًّا (١٧) عَنْ شَيْئِهِمْ، وَعَنْ أَذَاهُمْ كُفًّا
«لَسْتُ لِقَوْمِي...» لِلزُّبَيْدِيِّ أَنْشِدِ (١٨)

وإن أسا وأحسن ابن العم يشير إلى قول الشاعر:

إِذَا أَحْسَنَ ابْنُ الْعَمِّ بَعْدَ إِسَاءَةٍ فَلَسْتُ لِشَرِّي فَعْلِهِ بِحَمُولٍ

وهذا شاهد عند أهل اللغة على القلب، التقدير: فلست لشرِّ فعليه؛ لأنه فَعَلَ
فعلين أساء وأحسن فأصله: لشر فعليه، لكنه قَلَبَ فقال: لشرِّي فعله.

بالشيء جُد: يقال: جاد بالشيء إذا بذله.

على العشير: هو المعاشِر.

عِفَّ: كُفَّ وامتنع.

«لست لقومي...» **للزُّبَيْدي أنشد:** الزُّبَيْدي هو عمرو بن معديكرب -رضي الله عنه- صحابي شاعر، فارس مشهور، وبطل مذكور، يضرب به المثل في الشجاعة والقوة، له وقائع مذكورة في الجاهلية والإسلام، وأبلى بلاء حسنا في القادسية رضي الله عنه^(١).

يشير إلى قوله:

ولستُ لِقَوْمِي بِعَيَّابَةٍ وشرُّ العشيرة من عابها
أَعِفَّ وأبذل مالي لها ولا أتعلّم ألقابها

حث الناظم -رحمه الله- في البيت الأول على معاملة ابن العم ومن في معناه من ذوي القرابة بالبر والإحسان وقبول الإحسان منهم والتجاوز عن زلاتهم، وإذا صدر من أحدهم إساءة وإحسان فإنك تعامله بإحسانه وتصفح عن إساءته، وضمن في أبياته قول الشاعر:

إذا أحسن ابنُ العمِّ بعد إساءةٍ فلستُ لِشَرِّي فعله بِحَمُولٍ
والناظم لم يقتصر على ابن العم إلا على سبيل المثال، وإلا فمثله في هذا غيره من الأقارب والأصدقاء، بل والناس كلهم.

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**وخالق الناس بخلق حسن**»^(٢).

^(١) انظر: الاستيعاب (١٢٠١/٣)، والإصابة (٥٦٨/٤).

^(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني.

والصفح والإعراض عن الأذى والتجاوز عن الزلات من أخلاق الكبار، وقد ندب إلى ذلك القرآن: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾، ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾.

قال المتنبي:

فإن يَكُنِ الفعلُ الذي ساءَ واحدًا فأفعاله اللائي سَرَزَنَ أُلُوفُ^(١)
وقال آخر:

وإذا الحبيبُ أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنُه بألفٍ شفيع^(٢)
ثم حث على مواساة العشير، والعفة عما لديه، والكف عن أذاه.
وطباع الخلق مجبولة على استئثار من يطمع فيما في أيديهم، فمن رغب عما في أيديهم أحبوه^(٣)، وإذا أحبوه حصل له خيرهم وسلم من شرهم، ومن طلب ما في أيديهم كرهوا لقاءه، وكرهوا قُربه، ولم يسلم من شرهم.
هذا شيء جبلت عليه النفوس وقد قال الحسن البصري: لا تزال كريما على الناس، ولا يزال الناس يكرمونك، ما لم تتعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك، وأبغضوك^(٤).

واستشهد على هذا المعنى بقول عمرو بن معديكرب الزبيدي رضي الله عنه:

ولستُ لقومي بعيّابةٍ وشرُّ العشيرة من عابها
أعِفُّ وأبذل مالي لها ولا أتعلم ألقابها

^(١) انظر: شرح ديوان المتنبي للبرقوقي (٣٦/٢).

^(٢) انظر: تاريخ بغداد (٨/٢١).

^(٣) عن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - قال: أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - رجل فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، وصححه الألباني.

^(٤) أخرجه أحمد في الزهد (١٥١١).

ومعنى لا أتعلم ألقابها: لا أتتبع محل النبز منها والذم، والمراد الألقاب التي يكرهها المخاطب. وقد قال الشاعر:

أَكْنِيهِ حِينَ أَنَادِيهِ لِأُكْرِمَهُ وَلَا أَلْقَبُهُ وَالسَّوْءُ اللَّقَبُ
كَذَاكَ أَذْبْتُ حَتَّى صَارَ مِنْ خُلُقِي أَنِّي وَجَدْتُ مَلَاكَ الشَّيْمَةِ الْأَدَبُ

..... (١٧) ثُمَّ إِلَى الْحِلْمِ ازْدَلِفْ لِتَرْشُدِ
فَالْحِلْمُ خَيْرٌ مَا ارْتَدَاهُ السَّيِّدُ (١٨) «لَنْ يُدْرِكَ الْمَجْدَ...» لِذَاكَ يَشْهَدُ
فَارْزَنْ بِهِ فَالْحِلْمُ زَيْنُ الظُّرْفَا (١٩) وَالْعِلْمُ نِعَمَ الْمُقْتَنَى وَالْمُقْتَنَى
ازدلف: اقترب.

لترشد: الرشاد: الصواب.

والوجه فيه نصب الفعل تَرْشُدْ؛ لأن اللام هنا ليست لام الطلب التي تجزم المضارع، بل هي لام التعليل التي يُنصب المضارع بعدها بأن مضمرة جوازاً، لكن هكذا الرواية بكسر الدال.
ولو قال:

لست لقومي للزبيدي أنشدا ثم إلى الحلم ازدلف لترشدا
بالألف المبدلة من نون التوكيد الخفيفة في (أنشدا) وبألف الإطلاق في (لترشدا)
لسلم من الإشكال وصح.

فالحلم خير ما ارتداه السيد: الحلم: مصدر حلم إذا صفح وستر.
ارتداه: لبسه.

السيد: سيد القوم: رئيسهم من السيادة وهي المجد والشرف.
لن يدرك المجد لذاك يشهد: المجد: العز والشرف.
يشير إلى قول الشاعر:

لن يدرك المجد أقوام وإن شرفوا حتى يذُلُّوا - وإن عزُّوا - لأقوام

وَيُشْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفَرَةً لَا صَفْحَ دُلَّ وَلَكِنْ صَفْحَ إِكْرَامٍ^(١)
فَارْدَنْ بِهِ: أمر من ازدانَ بالشيء بمعنى تزيّن أي تحسّن وتزخرف.

فالحلم زين الظرفاء: الظرفاء جمع ظريف، وهو الكيس الذكي.

حث - رحمه الله تعالى - على التحلي بالحلم، ورغب فيه ذاكراً أنه خير ما تحلى وتزين به المرء، واستشهد على فضيلته بالبيتين السابقين اللذين أشار إليهما وقد ندبنا في القرآن إلى العفو والصفح والتجاوز قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وقال تعالى مخاطباً نبيه - صلى الله عليه وسلم -: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

وقد قال الشاعر:

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُورًا كَاطِمًا لِلْغَيْظِ تُبْصِرُ مَا تَقُولُ وَتَسْمَعُ
فَكَفَى بِهِ شَرَفًا تَصْبُرُ سَاعَةً يَرْضَى بِهَا عَنْكَ الْإِلَهُ وَتُرْفَعُ
وَإِذَا ذُكِرَ الْحَلَمُ ذُكِرَ الْأُحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، وَهُوَ مِنَ التَّابِعِينَ أَسْلَمَ - رحمه الله -، فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَمْ يَجْتَمِعْ بِهِ، وَكَانَ سَيِّدَ بَنِي تَمِيمٍ مَطَاعًا فِيهِمْ، كَانَ إِذَا غَضِبَ سَلَّتْ بَنُو تَمِيمٍ سِيوفُهَا قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا فِيمَ غَضَبٍ، وَقَدْ قِيلَ لَهُ: مِمَّنْ تَعَلَّمْتَ الْحَلَمَ؟ فَقَالَ: مِنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ الْمُنْقَرِيِّ، - وَقَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ صَحَابِي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَهُوَ خَالَ الْأُحْنَفِ -، قَالَ: كُنَّا نَخْتَلِفُ إِلَيْهِ فِي الْحَلَمِ كَمَا يُخْتَلَفُ إِلَى الْفُقَهَاءِ فِي الْفَقْهِ رَأَيْتُهُ يَوْمًا قَاعِدًا مَحْتَبِيًا بِحِمَائِلِ سَيْفِهِ يَحْدُثُ قَوْمَهُ إِذْ أَتَى بِرَجُلٍ مَكْتُوفٍ وَآخَرَ مَقْتُولٍ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا ابْنُ أَخِيكَ قَتَلَ ابْنَكَ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا حَلَّ حَبُوتَهُ وَلَا قَطَعَ كَلَامَهُ. فَلَمَّا أَتَمَّهُ التَّفَتُّ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي عَصَيْتَ رَبَّكَ، وَقَطَعْتَ رَحِمَكَ، وَقَتَلْتَ ابْنَ عَمِّكَ، وَرَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ. ثُمَّ قَالَ لِابْنِ لَهُ

^(١) انظر: الوحشيات ص (١٧٠)، وعيون الأخبار (٤٠٢/١) وفي البيتين روايات.

آخر: قم يا بُني فوارِ أخاك، وحلِّ كِتاف ابن عمك، وسُقْ إلى أملك مئة ناقة دية ابنها فإنها غريبة^(١).

وقد قال الأحنف: لست بجليم، ولكني أتحالم.

وقال حاتم الطائي:

تَحَلَّمْ عَنِ الْأَدْنَيْنِ وَاسْتَبَقِ وُدَّهُمْ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحَلَمَ حَتَّى تَحَلَّمَا^(٢)
يعني: كن حليما على أقاربك ومن تعاشره وتصاحبه واستبق حبهم لك، وإذا لم تكن حليما فاصطنع الحلم، فالحلم بالتحلم.

(والعلم نعم المقتنى والمقتنى): المقتنى: ما يجمعه الإنسان ويصطفيه. والمقتنى هو المتبّع المقتدى به.

وهذا تضمين من ألفية ابن مالك من قوله:

وَأِنْ يُقَدَّمْ مُشْعِرٌ بِهِ كَفَى ك:العلمُ نعم المقتنى والمقتنى
وقد عظم الله -تعالى- شأن العلم وشأن أهله، واعتد بشهادتهم على وحدانيته،
وقرئها بشهادته وشهادة ملائكته فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَأَلَمَلَيْكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ وفي هذا من شرف أهل العلم ورفعة
قدرهم ما ينحدر عنه السيل، ولا ترقى إليه الطير. ولو كان أحدُ أشرف من العلماء
لقرئهم الله باسمه واسم ملائكته.

وأخبر -سبحانه- أنهم أهل خشيته دون غيرهم ﴿إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ﴾.

^(١) انظر: الاستيعاب (٣/٢٩٥).

^(٢) انظر: ديوانه ص(٨١)، البيان والتبيين (٢/٢٩)، والفاضل (١/٩٠).

ومن أعظم الآيات الدالة على شرف العلم قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تُوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ انظر كيف تجد تحتها أنه ما دام آمن أهل العلم فسواء آمن غيرهم أم لا. تخيل عالمًا يقول: إذا حضر عندي فلان فما أبالي حضر غيره أم لم يحضر. كم فيه من الشرف! والله المثل الأعلى.

ومن الآيات الدالة على شرف العلم وأهله قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ انظر كيف أن الله -تعالى- يُري رأيهم.

لو أن علما سأل سائل فقال في جوابه: فلان -من طلبته- يرى كذا وكذا. لا شك أن هذه تركية عظيمة! والله المثل الأعلى.

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**إن العلماء ورثة الأنبياء**»^(١).

وهذا من أعظم مناقب أهل العلم، فإن الأنبياء خير خلق الله، فورثتهم خير الخلق بعدهم.

وفيه تنبيه على أنهم أقرب الناس إلى الأنبياء؛ لأن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث.

فالعلم أولى ما ينبغي أن تتجه إلى تحصيله وكيف لا؟ وهو كما قال الشيخ حافظ الحكمي:

العلم أعلى وأحلى ما له استمعت	أذن وأعرب عنه ناطق بقم
العلم غايته القصوى ورتبته ال	علياء فاسعوا إليه يا أولي الهمم
العلم أشرف مطلوب وطالبه	لله أكرم من يمشي على قدم
العلم نور مبين يستضيء به	أهل السعادة والجهال في الظلم

^(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني.

العلم أعلى حياة للعباد كما
والأدلة على فضل العلم كثيرة جدًا.

وإن فاتك شيء فلا يفتك أن تقرأ ما سطره بنان ابن القيم -رحمه الله تعالى- في
صدر كتابه مفتاح دار السعادة فهو من أحسن المواضع التي تكلمت عن شرف
العلم، ويجوز حذف (من)!

ساق فيه أكثر من مئة وخمسين وجها في بيان فضل العلم وشرفه ووجوه ذلك وآثاره
فأمتع وأطرب وأتى بكل بديع. وما ذكره الشيخ حافظ الحكمي في منظومته "الميمية
في الوصايا والآداب العلمية" من كلام في فضل العلم في أكثر من خمسين بيتا في
أولها يكاد يكون كله من مفتاح دار السعادة وتستطيع أن تقول إنه لخص ثلث ما
ذكره ابن القيم من وجوه فضل العلم.

يا طالب العلم لا تبغي به بدلا
وقدس العلم واعرف قدر حرمة
واجهد بعزم قوي لا انشاء له
فقد ظفرت ورب اللوح والقلم
في القول والفعل والآداب فالتزم
لو يعلم المرء قدر العلم لم ينم^(٢)

اعكف على الكتب وادرس	تخز	فخار	النبوّة
قال	خذ	الكتاب	بقوّة
ليحي:			

طَلَبُهُ فَرِيضَةً، وَأَفَرَضُهُ (٢٠) عِلْمٌ مُهِمٌّ، بِهِ ابْدَأْ تَقْبِضُهُ
فَقُوَّتُهُ الْفَقْهُ، وَمَلَحُهُ الَّذِي (٢١) يُصْلِحُهُ النَّحْوُ، جَهُولُهُ أَنْبَذَ
وَأَسْأَلُهُ إِدَامُهُ تَحْقِيقُهُ (٢٢) سِيرُهُ خَيْرٌ وَاجِبٌ تَصَدِيقُهُ

(١) الأبيات (١٦-٢٠) من المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية للشيخ حافظ الحكمي.

(٢) الأبيات (٦١-٦٣) من المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية.

فقوته الفقه: القوت: ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. شبه الفقه بالطعام الذي يقوم به البدن، وقد صدق فالفقه والعلم هو قُوتُ الروح الذي لا تقوم الروح إلا به، كما قال الإلبيري في تائيته:

فَقُوتُ الروح أرواحُ المعاني وليس بأن طَعِمْتَ وأن شَرِبْتَ
انيد: اطرح.

وَأُسَّهُ: الأسّ: أصل البناء.

إدامه: الإدام: ما يُصْلَح به القوت.

قوله: **طلبه فريضة** روي في هذا المعنى حديث: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**». أخرجه ابن ماجه^(١) من حديث أنس -رضي الله عنه-، وبين الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- في جامع بيان العلم وفضله^(٢) أنه حديث مُعَلَّل لكن معناه صحيح، وألحق بعض المتأخرين بآخر هذا الحديث "ومسلمة" وهي زيادة لا أصل لها كما نبه عليه السخاوي في المقاصد الحسنة^(٣)، وإن كان معناها صحيحا كذلك.

ثم بين أن آكده وأوجبه علم المهم الذي يلزمك، وقد قيل للإمام مالك: ما تقول في العلم؟ قال: حسن جميل، ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه^(٤).

فإذا بدأت بالمهم وقدمته على غيره قبضته.

وقوله: (تقبضه) هذا جواب الطلب. فما وجه ضم الضاد؟ الأصل: به ابدأ تقبضه بتسكين الضاد لكن يجوز في الوقف تسكين الحرف الأخير ونقل حركته إلى الحرف الذي قبله.

(١) (٢٢٤).

(٢) (٢٣/١).

(٣) ص (٤٤٢).

(٤) حلية الأولياء (٣١٩/٦).

مثلاً: هذا الضَرْبُ يجوز في الوقف أن تقول: هذا الضَرْبُ بضم الراء.
 رأيت الضَرْبَ يجوز في الوقف أن تقول: رأيت الضَرْبَ بفتح الراء.
 مررت بالضَرْبِ يجوز في الوقف أن تقول: مررت بالضَرْبِ بكسر الراء.
 وقرئ في الشواذ عند الوقف: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ بكسر الصاد ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ بكسر
 الباء وشاهده عند النحاة قول زياد الأعجم:

عَجِبْتُ -والدهرُ كثيرٌ عَجْبُهُ- من عَنَزِيٍّ سَبَنِي لم أَضْرِبُهُ
 أَضْرِبُهُ: بتسكين الحرف الأخير ونقل حركته إلى الحرف الذي قبله، وهذا ليس
 بضرورة بل هو جائز في الشعر والنثر^(١).

حث الناظم -رحمه الله تعالى- هنا على ثلاثة علوم الفقه والنحو والسير، وابتدأ من
 ذلك بالفقه وهو من أهم العلوم، وقد قال الإمام الشافعي ليونس بن عبد الأعلى:
 عليك بالفقه إنه كالتفاح الشامي يحمل من عامه^(٢). يريد أن منفعته حاضرة.

والعُمُرُ عن تحصيلِ كُلِّ عِلْمٍ يَقْصُرُ فابداً مِنْهُ بِالْأَهَمِّ
 وذلكَ الفقهُ فَإِنَّ مِنْهُ ما لا غنى في كلِّ حالٍ عنه^(٣)
 وقد قال ابن الجوزي -رحمه الله- في صيد الخاطر^(٤): "الفقه عليه مدار العلوم". ثم
 قال: "فإن اتسع الزمان للتزَيُّد من العلم فليكن في الفقه فإنه الأنفع".

ثم حث على علم النحو، وما من علم من العلوم الشرعية إلا وافتقاره إلى علم
 النحو بيِّن لا يُدفع، ومكشوف لا يتقنَّع. فتمَّ مسائل فقهية سبب الخلاف فيها
 مرده إلى النحو. وقد قال الجرمي -رحمه الله-: أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في
 الفقه من كتاب سيبويه^(٥).

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (١٧٩/٤)، وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١٧٤/٤).

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي (١٤٠/٢).

(٣) من مقدمة بجهة الحاوي وهي منظومة في الفقه لابن الوردي تيفت على خمسة آلاف بيت.

(٤) ص (١٨٤).

(٥) تفسير القرطبي (٢١/١).

وكذلك في العقيدة فإن الجهل بالنحو والعربية كان سبباً في وقوع كثير من الانحرافات. كما قال أبو عمرو بن العلاء: أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية^(١).

وقال الحسن البصري: أهلكتهم العجمة^(٢).

وكذلك التفسير وقد قال الإمام مالك: لا أوتى برجل يفسر القرآن وهو لا يعرف العربية إلا جعلته نكالا^(٣).

ثم النحو جمال للمنطق كما قال ابن الوردي - رحمه الله - في لاميته^(٤):

جَمَلُ المنطق بالنحو فَمَنْ يُحَرِّمُ الإعرابَ بالنطق اخْتَبَلَ
وكذلك في الحديث وقد قال الأصمعي: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم
إذا لم يعرف النحو أن يدخل في قوله - صلى الله عليه وسلم -: «**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»^(٥)؛ لأنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يلحن
فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه^(٦).

قال الحافظ العراقي^(٧):

وَلْيَحْذَرْ اللَّحَّانَ وَالْمُصَحِّفَا عَلَى حَدِيثِهِ بِأَنْ يُحَرِّفَا
فَيَدْخُلَا فِي قَوْلِهِ: «**مَنْ كَذَبَا...**» فَحَقُّ النُّحُو عَلَى مَنْ طَلَبَا
وقد قال وكيع: أتيت الأعمش أسمع منه الحديث وكنت ربما لحنت فقال لي: يا أبا
سفيان تركت ما هو أولى بك من الحديث؟ فقلت: يا أبا محمد وأي شيء أولى من

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (٣٢/١).

(٢) خلق أفعال العباد (١٦٥/١).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٤٣/٣).

(٤) البيت (٢٢) من لاميته المسماة نصيحة الإخوان ومرشدة الخلان.

(٥) أخرجه البخاري (١٢٩١).

(٦) روضة العقلاء ص (٢٢٣)، والإلماع إلى أصول الرواية وتقييد السماع ص (١٨٤).

(٧) البيتان (٦٣٩، ٦٤٠) من ألفية العراقي في مصطلح الحديث.

الحديث؟ فقال: النحو. فأملى عليّ الأعمش النحو ثم أملى عليّ الحديث^(١).
فهذا يدل على أهمية النحو والعربية.

والعلم الثالث من العلوم التي حث الناظم على تعلمها علمُ سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ذكر الناظم هنا من العلوم الشرعية علمُ الفقه، ومن العلوم اللغوية علمُ النحو، ومن العلوم التاريخية علمُ السيرة.

ومن أحسن ما وُصف به التاريخ على جهة العموم قول المسعودي: إنه علم يستمتع به العالم والجاهل، ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل، فكل غريبة منه تعرف، وكل نادرة منه تستظرف. قال: يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر، والبادي والحاضر، والموجود والغابر.

وقد أحسن ما شاء لسان الدين ابن الخطيب حين قال^(٢):

وبعدُ فالتاريخُ والأخبارُ فيه لِنَفْسِ العاقلِ اعتبارُ
وفيه للمستبصرِ استبصارُ كيف أتى القوم وكيف صاروا
يُجري على الحاضر حُكْمَ الغائبِ فيُثَبِّتُ الحقَّ بسهمِ صائبِ
ويَنْظُرُ الدنيا بعينِ الثُّبُلِ ويتركُ الجهلَ لأهلِ الجهلِ
وقال آخر:

ومن حوى التاريخَ في صدره أضاف أعمارًا إلى عمره
وإذا كان هذا شأنَ التاريخ على جهة العموم فما ظنك بتاريخ أعظم من أرخَ له
وهو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي فرض الله علينا الائتساء به فقال:
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ولا يتم واجب الائتساء به إلا بمعرفة
أحواله -صلى الله عليه وسلم-.

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٢٦).

(٢) الأبيات (٤٥-٤٨) من منظومته رقم الحلل في نظم الدول.

وفرض علينا محبته كما قال -صلى الله عليه وسلم-: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»^(١).

وكيف تحب من لا تعرف!

وسيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- هي الأساس والأصل كما ذكر الناظم. وقد قال سفيان بن عيينة: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو الميزان الأكبر، فعليه تعرض الأشياء على خلقه وسيرته وهديه، فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل^(٢).

ولما كانت السيرة بهذه الدرجة الشاملة لكل شؤون الحياة اعتبرها الناظم الأساس الذي تبنى عليه العلوم، والإدام الذي لا يستساغ الطعام إلا به، والتحقيق للعلوم؛ لأنها تتضح في علم السيرة.

وقوله: **وأسه إدامه تحقيقه** هذا عطف بحذف العاطف. والعطف بحذف العاطف جائز قال ابن مالك في الكافية الشافية^(٣): (وحذف عاطفٍ قد يلفى)

لَهُ تَعَرَّبٌ، وَتَوَاضَعٌ، وَاتَّبِعٌ (٢٣) **وَجُوعٌ، وَهُنٌّ، وَاعْصِ هَوَاكَ، وَاتَّبِعْ حَتَّى تَرَى حَالَكَ حَالَ الْمُتَشَدِّدِ** (٢٤) «**لَوْ أَنَّ سَلْمَى أَبْصَرَتْ تَخَدُّدِي...**» **وَأَفْصَدَ بِهِ وَجْهَ الَّذِي أَنْشَاكَ** (٢٥) **وَلَا تُمَارِ فِيهِ مَنْ نَاوَاكَ**

تغرب: أمر من التَّعَرَّب وهو التُّزوح عن الوطن والبعد عنه.

وتواضع: أمر من التواضع وهو خفض الجناح ولين الجانب.

واتبع: أمر من الاتباع يقال: تَبِعَهُ وَاتَّبَعَهُ إذا مشى خلفه.

وجع: أمر من الجوع والمقصود التقلل من الطعام.

^(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

^(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٧٩/١).

^(٣) شرح الكافية الشافية (١٢٦٠/٣). وانظر تقرير جوازه في أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١٩٥/١).

وهُن: أمر من هان، يهون، هونا - بفتح الهاء - إذا لان وسهل، فهو هين بتشديد الياء ويجوز تخفيفها يقال: هين لين، ويقال: هين لئن كما قال الشاعر:

هَيْنُونُ لَيْنُونُ أَيْسَارُ ذُوو كَرَمٍ سُؤاسُ مَكْرَمَةٍ أَبْنَاءُ أَيْسَارِ

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي برفق وسكينة.

ويأتي في اللغة أمرا من هان، يهون، هونا بضم الهاء إذا ذل. ومنه قوله تعالى: ﴿أَيْمِسْكُهُمْ عَلَى هُونٍ﴾.

واعص هواك: الهوى ميل النفس إلى الشيء، ثم غلب استعمال الهوى في الميل المذموم ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾.

واترّع: وزنه افتعل من الورع. الأصل أن يقال: اوترّع لكن القاعدة أن الواو والياء تبدلان تاء إذا وقعتا فاء لفعل على وزن افتعل أو أحد مشتقاته كالمضارع والأمر واسم الفاعل.

مثلا: لو بنيت افتعل من وصّف تقول: اتصف بإبدال الواو تاء، ويسر بمعنى سهل إذا بنيت منها افتعل تقول: اتسر. قال ابن مالك^(١):

ذو اللين فا تا في افتعالٍ أبدا

يقال: ورع يرع - بكسر الراء فيهما - وتورّع من كذا أي تحرّج.

«لو أن سلمى أبصرت تخددي...» يشير به إلى قول رجل اعتلّ في غربة فتذكر أهله وقال^(٢):

لو أنّ سلمى أبصرت تخددي ودقّة في عظم ساقِي ويدي
وبعد أهلي وجفاء عؤدي عضّت من الوجد بأطراف اليد
يريد بالتخدّد: ما حدث في جسمه من النحول والهزال.

^(١) البيت (٩٨٦) من الألفية.

^(٢) انظر: الكامل في اللغة والأدب (١/١٦٣).

ولا ثمار: أي لا تجادل. قيل: لا يكون المرء إلا اعتراضا، بخلاف الجدل فإنه يكون ابتداءً واعتراضا^(١).

ناواكا: أصلها ناوأك، ومثلها **أنشاك** أصلها أنشأك أبدلت الهمزة فيهما ألفا تخفيفا، والألف بعد الكاف فيهما للإطلاق.

والمناوأة: المعادة.

في البيت الأول سبع صفات ندب الناظم - رحمه الله تعالى - طالب العلم إلى التحلي بها.

الأولى: التغرب عن الأهل والوطن في طلب العلم؛ لأنه إذا تباعد الطالب عنهما انقطع عن الشواغل والعلائق الصارفة عن تحصيله، واجتمعت فكرته لحفظ العلم وجمعه.

قال الشاعر:

الأهل والجهل ساكنان في بلدٍ فاصبر عن الأهل أو فاصبر على الثاني والثاني هو الجهل.

وقد قال موسى - عليه السلام - لفتاه في رحلته إلى الخضر ليتعلم منه: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ يعني: أو أسير زمانا طويلا إلى أن ألقى العبد الصالح فأتعلم منه.

وقد قال البخاري في صحيحه^(٢): باب الخروج في طلب العلم قال: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد.

والأخبار في هذا كثيرة وقد ذكر كثيرا منها الخطيب البغدادي في كتابه "الرحلة في طلب الحديث".

الثانية: التواضع، وهو كما قال الجنيد: خفض الجناح ولين الجانب^(١).

^(١) المصباح المنير (٥٦٩/٢).

^(٢) قبل الحديث (٧٨).

وقد أمر الله تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- بالتواضع فقال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(١). وقال -صلى الله عليه وسلم-: «مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(٢).

وطالب العلم إذا تواضع خضع للحق وانقاد له وراه شيخه أهلاً لأن يوضع العلم عنده.

وانظر إلى قول موسى -عليه السلام- للخضر بتواضع وتلطف -وهو كليم الله تعالى ومن أولي العزم من الرسل-: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ ولم يقل: سأتبعك.

قال: ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ﴾ فجعل نفسه متعلماً.

قال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ من للتبعيض أي على أن تعلمني بعض ما عُلِّمته.

والثالثة: الاتباع.

والخير كل الخير والسعادة كل السعادة في اتباع ما كان عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الكرام ومن تبعهم بإحسان قال -صلى الله عليه وسلم-: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرُوا خَلْفَهُ كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ

(١) مدارج السالكين (٢/٣١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٥٥).

الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(١).

وقال -صلى الله عليه وسلم-: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢).

وقال ابن مسعود -رضي الله عنه-: إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر^(٣).

وقال الإمام مالك: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها^(٤).

الرابعة: التقليل من الطعام وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»^(٥).

وقال ابن عمر -رضي الله عنهما-: ما شبعنا منذ أسلمت^(٦).

وقال الحارث بن كلفة^(٧) -وهو طبيب العرب في وقته من أهل الطائف يُروى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يأمر من به علة أن يأتيه فيتطبب عنده- قال: الحمية رأس الدواء، والبطنة رأس الداء. وبعضهم يرويه حديثاً ولا يصح^(٨). وقد قال ابن الرومي^(٩):

فإنّ الداءَ أكثرُ ما تراه يكون من الطعام أو الشرابِ

(١) أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨)، وهو في البخاري معلقاً قبل (٧٣٥٠).

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩٦/١).

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢٠٥/٢)، واقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٦٧).

(٥) أخرجه أحمد (١٧١٨٦)، والترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٦) حلية الأولياء (٢٩٩/١).

(٧) انظر: الإصابة (٣٨٨/٢).

(٨) انظر: غذاء الألباب شرح منظومة الآداب للسفاريني (٨٦/٢).

(٩) ديوانه (١٤٩/١).

والمطلوب التوسط والاقتصاد فكما أن الإكثار من الطعام مذموم فكذلك المبالغة في تقليل الطعام إذ المبالغة في ذلك ربما أضرت بالبدن أو قصرت به عن فعل الواجب.

وقد قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

الخامسة: أن تهون عليه نفسه في طلب العلم فيقتحم الشدائد التي تعترضه من أجل أن يحصل العلم. وموسى -عليه السلام- ليعلمه الخضر مما علّمه رُشدا ركب البحر في سفينة مخروقة وهي من أكبر المخاطر.

وقد كتب إبراهيم بن أدهم إلى سفيان الثوري: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل^(١).

السادسة: مخالفة الهوى وقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٦٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٦٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٧٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٧١﴾﴾

وقد قيل: إنما سمي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه إلى أسفل سافلين. ومما يردع النفس عن الهوى أن يسير العبد بفكره في عواقب الهوى، فيتأمل كم أفاتت طاعة الهوى من فضيلة! وكم أوقعت في رذيلة! كم من شهوة نكّست رأساً، وقبّحت ذكراً، وأورثت ذلاً، وألزمت عارا لا يغسله الماء^(٢).

وهل سَعِدَ بمعصية الله أحد!

كم من هوى أورث ذلاً ما مُحي	نكّس رأساً ورمى بالترّح
كم من هوى قبّح ذكراً في الوري	أوقد من نار الهوى ما لا يُرى
كم عاقلٍ أرخى الزّمام للهوى	حتى إذا انتهى به الدرب هوى

^(١) تاريخ دمشق (٦/٣٣٥)، والبداية والنهاية (١٣/٥٠٨).

^(٢) انظر: روضة المحبين (٤٧٢).

كان ابتداء أمره مجونا فما ارعوى حتى غدا جنونا وعلى العبد ألا يركن إلى نفسه وصبره وحاله وما يعرفه من نفسه من العفة. فإنه متى ركن إلى ذلك تخلفت عنه عصمة الله -تعالى-. وقد قال الله -تعالى- لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ولهذا كان أكثر دعائه -صلى الله عليه وسلم-: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك^(١).

السابعة: الورع. والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة، أما الزهد فترك ما لا ينفعك في الآخرة نقله ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام. ثم قال: وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها^(٢).

الورع: ترك ما يضر في الآخرة، والزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة، فالواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهد ولا ورع، أما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع، وأما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع، فالزهد أعلى من الورع. وقد قال سفيان الثوري: ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه^(٣). وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس^(٤).

حتى ترى حالك حال المنشد: يقول: تغرب للعلم وتواضع واستكمل تلك الصفات التي ذكرها حتى يكون حالك كحال منشد ذينك البيتين السابقين:

لَوْ أَنَّ سَلَمَى أَبْصَرْتُ تَخَذُّدِي وَدِقَّةً فِي عَظْمِ سَاقِي وَيَدِي
وَبُعْدَ أَهْلِي وَجَفَاءَ عُودِي عَضَّتْ مِنَ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ

^(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٢) وصححه الألباني.

^(٢) انظر: مدارج السالكين (١٢/٢).

^(٣) انظر: مدارج السالكين (٢٥/٢).

^(٤) انظر: المصدر السابق.

ثم حث على الإخلاص في طلب العلم وسبق الكلام عن هذا في قوله في أول نصيحته: "خالص الأعمال من النفاق".

ثم بعد أن حث على العلم والإخلاص حذر من المماراة، وقد جاءت الأدلة في التحذير من ذلك قال تعالى: ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ وقال - صلى الله عليه وسلم: - «لا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لُتَبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءُ، وَلَا لُتَمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءُ، وَلَا تُخَيِّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالْنَارُ النَّارُ»^(١).
وقد قال الإمام مالك: المرء يقسّي القلب ويورث الضغن^(٢).

وهذا في المجادلة بالباطل أما المجادلة بالتي هي أحسن لإظهار الحق ورد الباطل فذلك حق أمر الله - تعالى - به في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وقد عقد ابن عبد البر في كتابه "جامع بيان العلم وفضله" باباً لما تكره فيه المناظرة والجدال والمرء^(٣)، وباباً لإثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة^(٤)، أورد فيهما جملة من الأدلة والآثار في ذلك.

لِلضَّيْفِ هَيِّئْ مَنْزِلًا رَحِيماً (٢٦) وَلَا قِينَئِهِ الْبِشْرَ وَالتَّرحِيماً
عَنْهُ اكْتُمِ الْأَكْثَادَ وَالْمَصَائِبَ (٢٧) وَأَرْجُرْ أَهَالِيكَ عَنِ التَّصَاخُبِ
إِلَى مَسِيرِهِ، وَشَيِّعٍ، زَوْدٍ (٢٨) بِمَا تَيْسَّرَ، وَفِي الشُّؤْرِ ازْهَدْ
وَاخْذُمَهُ نَفْسَكَ، رُوي أَنَّ الْخَلِيلَ (٢٩) أَوْحَى بِذَا إِلَيْهِ رُثُّهُ الْجَلِيلِ

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤)، وصححه الألباني.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٥٣٨/١).

(٣) (٩٢٨/٢).

(٤) (٩٥٣/٢).

الضيف في لسان الشرع - وهو الذي يجب على من نزل عليه أن يكرمه -: هو من نزل بك من غير بلدك.

فهذا الذي قصدك من بلد آخر هو الوارد في الأحاديث. ويدل لهذا ما ورد في بعض الأحاديث من التصريح بوصف السفر عند ذكر حق الضيف، من ذلك ما أخرجه الشيخان^(١) عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - أنه قال: قلنا: يا رسول الله إنك تبعثنا فننزل بقوم لا يقروننا فما ترى؟ فقال لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم».

معنى لا يقروننا: لا يقدمون لنا حق الضيف.

وأما الزائر من نفس البلد أو من كان قادما من بلد آخر لكنه ليس قادما عليك فلا شك أن إطعامه وإكرامه يدخل في عموم الأمر بإطعام الطعام والإحسان إلى الناس، لكنه ليس هو الضيف الذي أوجب النبي - صلى الله عليه وسلم - إكرامه، وجعل له حَقًّا في مال المضيف.

للضيف هَيئ منزلا: المنزل: مكان النزول

رحيبا: الرحيب: الواسع.

ولاقيه البشـر والترحيبا: البشر: بشاشة الوجه وطلاقة، والترحيب: أن تقول له مرحبا أي: نزلت مكانا واسعا.

عنه اكنم الأكدار: الأكدار: ما ينغص من الهموم والمصائب.

وازجر أهالك عن التصاخب: التصاخب: التصايح والتضارب.

إلى مسيره: وفي رواية: إلى ارتحاله.

وشيع: أي اخرج معه لتودعه.

زود: أعطه الزاد، وهو ما يتخذ من الطعام للسفر.

^(١) أخرجه البخاري (٦١٣٧)، ومسلم (١٧٢٧).

وفي السُّور ازهَّد: السُّور: ما يبقى في الإناء من الماء وغيره.

حث الناظم -رحمه الله تعالى- في هذه الأبيات على إكرام الضيف، وهو مَكْرَمَة من مكارم الأخلاق، يدل على سماحة في النفس، وكرم في الطبع. وقد ندب النبي -صلى الله عليه وسلم- الأمة إلى إكرام الضيف، وبَيَّن -صلى الله عليه وسلم- أن ذلك من تمام الإيمان بالله واليوم الآخر، فعن أبي شريح العدوي -رضي الله عنه- أنه قال: سَمِعْتُ أَذْنَاي وَأَبْصَرْتُ عَيْنَاي حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- فقال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ**». قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «**يَوْمَ وَلِيلَةٍ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ**» متفق عليه^(١).

وفي لفظ لمسلم^(٢): «**الضيافة ثلاثة أيام، وجائزته يوم وليلة**».

ومعنى قوله: «**جائزته يوم وليلة**»: أنه يكرمه ويتحفه ويخصه يوماً وليلة أي يتكلف له في اليوم الأول بما اتسع له من بر وإحسان. ويقدم له في اليوم الثاني والثالث ما كان بحضرته، وما كان بعد الثالث فهو صدقة ومعروف، إن شاء فعل، وإن شاء ترك، لكن لا ينبغي للضيف أن يثقل على مضيفه ويخرجه ويضيق عليه قال -صلى الله عليه وسلم- كما في لفظ للبخاري^(٣): «**وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُخْرِجَهُ**» يعني: لا يجوز له أن يقيم عنده حتى يضيق عليه.

وقد أشار الناظم إلى بعض آداب الضيافة في هذه الأبيات فمن ذلك تهيئة المكان للضيف وتمهيده، وإظهار السرور والسعادة بزيارته، والترحيب به.

فطلاقة وجه المضيف وانبساطه وبشاشته خير من القُرَى. كما قال الشاعر:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويُحْصِبُ عِنْدِي وَالْحُلَّ جَدِيدُ

^(١) أخرجه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨-١٤).

^(٢) (٤٨-١٥).

^(٣) (٦١٣٥).

وما الخِصْبُ للأضياف أن يكثر القِرَى ولكنما وجهُ الكريم خصبٌ
والمبالغة في الترحيب به حتى يشعر ضيفه أن ما في المنزل ملك لهذا الضيف كما
قال الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل
وقد قال في عشرة الإخوان:

واعمل	بقول	الأول	الضيف	رب	المنزل
وأظهر	الإيناسا	ولا	تكن	عبّاسا	
فالبشر	واللطافة	خير	من	الضيافة	

ومن ذلك مؤانسته بالحديث معه، وإدخال السرور عليه بما يجب من الأخبار
والطُرف، وأن يسهر معه، ولا ينام قبله.

لحافي لحاف الضيف والبيت بيته ولم يُلهني عنه غزال مُقنّع
أحدّته إن الحديث من القِرَى وتعلم نفسي أنه سوف يهجع
ومن الآداب إخفاء كل ما ينغص من الهموم والمشكلات التي عند المضيف.
ومنها إلزام أهل البيت بالهدوء من حول الضيف وعدم إزعاجه بالتخاصم ورفع
الصوت.

ويستمر هذا الجو من الإكرام إلى مسيره وارتحاله، فإذا ارتحل فمن الآداب تشييعه
بأن يخرج معه ليودعه وينبغي ألا يكون آخر العهد به داخل بيته، بل ينبغي أن يخرج
معه.

وينبغي كذلك أن يزوده بما يتيسر من الطعام وألا يُتبع ما بقي من الطعام نفسه بل
يتركه للضيف.

ولبعضهم في هذا المعنى:

ونُكرِمُ ضيفنا ما دام فينا ونبعّه الكرامة حيث مالا

وإذا ودّعه أظهر التأسّف على وداعه، وأبدى الرغبة في بقاءه، وحثه على التّريث وعدم العجلة.

وكان من المناسب أن تُحتمّ الآداب بتشجيعه وتزويده ونحو ذلك مما يتعلق بتوذيده لكنه ختمها بخدمة المضيف للضيف.

وقد قيل: إن الله - تعالى - سمى ضيف إبراهيم بالمكرمين؛ لأن إبراهيم - عليه السلام - كان يخدمهم بنفسه وأهله.

وأشار بقوله: **روي أن الخليل أوحى بدا إليه ربه الجليل** إلى ما يُروى من أن إبراهيم - عليه السلام - أوحى الله إليه: أن أكرم ضيفك فبالغ في الإكرام، ثم أوحى الله إليه: أن أكرم ضيفك فأعد لكل ضيف شاة، ثم أوحى الله إليه: أن أكرم ضيفك فعلم أنه لا يريد القرى فخدم ضيفه فأوحى الله إليه: الآن أكرمت ضيفك يا إبراهيم.

وهذا المعنى يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ لم يقل: فأمر لهم بعجل حنيز بل إبراهيم - عليه السلام - هو الذي ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه.

وقد استنبط ابن القيم من آيات ضيف إبراهيم في سورة الذاريات جملة من آداب الضيافة في جلاء الأفهام^(١) وفي الرسالة التبوكية^(٢) وقال^(٣): "جمعت هذه الآيات آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب".

وَأَجْمَلِ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَمُوتَ وَلَا (٣٠) (إِجْمَالٌ مَنْ تَجْمَلًا تَجْمَلًا)
وَأَبْتِ عَنْكَ فَأَنْتَ الْأَعْلَى (٣١) لِيَهْنِكَ الْإِبَاءُ وَهِيَ النَّزْلُ

(١) ص (٢٧١).

(٢) ص (٦٣).

(٣) في جلاء الأفهام ص (٢٧٣).

قَوْلُ الرَّخْشَرِيِّ: «وَمُذْ أَلَحَّ...» (لا ٣٢) تَعْدِلُ بِهِ فَهُوَ يُضَاهِي الْمَثَلَا

أَجْمَلُ: أمرٌ من أجْمَلَ، يقال: أجْمَلَ في طلب الشيء إذا اتَّأَدَّ واعتدل فلم يُفْرِط.

أَنْ تَمَوَّلَا: أصلها: أن تتمول حذفت إحدى التائين تخفيفاً، وهذا كثير: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ

نَارًا تَلْظَى﴾ أي: تتلظى ﴿تَنْزِلُ الْمَلَكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ أي: تنزل ﴿مَا لَكُمْ لَا

تَنَاصَرُونَ﴾ أي: تتناصرون.

قال ابن مالك^(١):

وما بتاءين ابْتَدَى قد يُقْتَصَرُ فيه على تا كـ (تَبَيَّنُ الْعِبَرُ)

يقال: تمول إذا اتخذ مالا، ووزن تَفَعَّلَ يأتي لمعنى الاتخاذ، يقال: توسد ذراعه إذا

اتخذها وسادة، وتبني فلانا إذا اتخذناه ابنا.

(إجمال من تجملاً تجملاً): ضمنه من ألفية ابن مالك.

وإجمال: مصدر لقوله في أول البيت: أجمل، وتجمّل: مصدر لقوله: تجمّل وأصلها:

تَتَجَمَّلُ والألف في البيت للإطلاق، وهما من المصدر المؤكد لعامله.

يقول: إذا أردت المال فأجمل إجمال من تجمّل تجملاً، أي: بالغ في الإجمال،

والإجمال في الطلب - كما سبق - هو الاتّئاد والاعتدال وترك المبالغة والإفراط.

فإنَّ أَبْتَ عَنْكَ: أبت: امتنعت.

ليهنك الإباء: ليهنك: ليسرّك.

وهي النُّزْلَى: الضمير "هي" عائد إلى الدنيا، ولم يتقدم لها ذكر، لكنها تفهم من

سياق الكلام. وَعَوْدُ الضمير إلى ما يفهم من سياق الكلام كثير ﴿حَتَّى تَوَارَتْ

بِالْحِجَابِ﴾ أي: الشمس ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي: أنزلنا القرآن.

^(١) في البيت (٩٩٥) من الألفية.

قول الزمخشري: هو محمود بن عمر الزمخشري^(١) كان معتزليا متظاهرا بالاعتزال حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له: أبو القاسم المعتزلي بالباب. له الكشف في تفسير القرآن حشاه بالاعتزال. حتى ذكر ابن المنير أن الاعتزال فيه أدق من ديب النمل يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفاً. وقال البلقيني: استخرجت من الكشف اعتزالاً بالمناقش.

قول الزمخشري: «ومذ أفلح...»: يشير - رحمه الله - إلى بيتين للزمخشري هما قوله: وأخبرني دهري وقدّم معشراً على أنهم لا يعلمون وأعلم ومذ أفلح الجهال أيقنت أنني أنا الميم والأيام أفلح أعلم الأفلح: مشقوق الشفة السفلى، والأعلم: مشقوق الشفة العليا، والأفلح أعلم لا يستطيع أن ينطق حرف الميم؛ لأن الميم تخرج من بين الشفتين العليا والسفلى بانطباقهما.

(لا تعدل به فهو يضاهي المثلاً): ضمنه من ألفية ابن مالك مع تغيير يسير فإن ابن مالك قال: (لا تعدل بذا فهو يضاهي المثلاً).

لا تعدل به: لا تبغ غيره.

فهو يضاهي المثلاً: يشابه ويحاكي المثل.

والهاء في قوله به تعود إلى قول الزمخشري السابق.

والمثل: هو القول السائر المشبه مضره بمورده. وفنّ الأمثال فنّ في غاية الشرف لا تتم لغة اللغوي ولا نحو النحوي ولا أدب الأديب إلا به.

حث الناظم - رحمه الله تعالى - هنا على الإجمال والاعتدال في طلب الدنيا والتكسب. ثم ذكر احتمالين الأول: ألا ينجح في اكتسابه فلا تقبل عليه الدنيا،

^(١) انظر: وفيات الأعيان (١٧٠/٥)، وسير أعلام النبلاء (١٥١/٢٠).

وهو الذي أشار إليه بقوله: **فإن أبت عنك**. والثاني: أن ينجح في اكتسابه فتقبل عليه الدنيا وهو الذي أشار إليه بقوله: **أو ساعدتك**.

وذكر على الاحتمال الأول - وهو ألا يحصل من تكسبه شيئاً من الدنيا - أنه ينبغي ألا يتأسف على فواتها؛ فإن إعراضها عنه دليل على ارتفاع رتبته لخستها وانحطاط درجتها. واستشهد على ذلك بيتي الزمخشري السابقين، وقد أشار فيهما إلى أن الدنيا قد يتقدم فيها الوضعاء والجهال فليست هي المقياس.

فليست هذه الدنيا بشيءٍ تسوؤك حِقْبَةً وتسُرُّ وقتنا
وغايئها إذا فكّرت فيها كَفَيْكَ أو كحلمك إن حلمتا
وهذا الذي حث عليه الناظم من الإجمال في طلب الدنيا أي الالتئاد والاعتدال في طلبها جاءت به السنة، من ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: **«أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب؛ فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حلّ، ودعوا ما حرم»**^(١).
بقي الاحتمال الآخر: وهو أن تقبل عليك الدنيا بعد الإجمال في طلبها وهذا الذي قال فيه:

أَوْ سَاعَدَتْكَ فَافْتَصِدْ فِي الْمَالِ (٣٣) وَاعْدُ عَنِ الشُّبِّهِ لِلْحَلَالِ
وَاصْرِفْهُ فِي حُقُوقِهِ مُتَمَثِّلًا (٣٤) لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا ... وَلَا ...﴾
أو ساعدتك: أقبلت عليك، ضمير الفاعل يعود إلى الدنيا.

فاقتصد في المال: الاقتصاد في المال التوسط في إنفاقه، بين الإسراف والتقتير. والتقتير: التضييق في النفقة.

واعدُ عَنِ الشُّبِّهِ لِلْحَلَالِ: جاوز الشُّبَّه وهي ما لم يتبين لك حكمه أهو من الحلال أم من الحرام جاوزها إلى الحلال.

^(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصححه الألباني.

واصرفه في حقوقه: أنفقه في حقوقه.

ممثلاً: متبعاً.

لقله سبحانه: ﴿وَلَا ... وَلَا ...﴾: يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

بعد أن حث -رحمه الله- على الإجمال في طلب المال والاعتدال في تكسبه ذكر احتمالين الأول هو ما سبق من ألا يحصل من تكسبه شيئاً، وأرشد إلى ألا يتأسف على فوات الدنيا. ثم ذكر الاحتمال الثاني هنا وهو أن تقبل عليه الدنيا بعد الإجمال في طلبها.

وجدد النصح في هذه الحالة بالاقتصاد في المال، وحذر من الشبهات وحث على تحري الحلال، وعلى صرف المال في حقوقه بلا إسراف ولا تقتير. ويحمل على تقوى الله في المال إذا أقبلت عليك الدنيا أن تعلم أنك مسؤول يوم القيامة عن مالك من أين اكتسبته؟ وفيم أنفقته؟ وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله فيم اكتسبه، وفيم أنفق، وعن جسمه فيما أبلاه»^(١).

وحت -رحمه الله- على تجاوز المشتبهات وتعدّيها إلى الحلال البين، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: «إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»^(٢).

فمن له اعتناء بدينه عليه أن يبذل جهده في تصحيح لقمة عيشه، وقد قال إبراهيم ابن أدهم: "ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه"^(٣).

^(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٧) وقال: حديث حسن صحيح.

^(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

^(٣) إحياء علوم الدين (٩١/٢).

وقال ابن مبارك: "ردّ درهم من شبهة أحب إلي من أن أتصدق بمئة ألف درهم، ومئة ألف درهم، ومئة ألف" حتى بلغ ست مئة ألف^(١).
قال في مطهرة القلوب^(٢):

وترك درهم لكونه حَظْرٌ أفضل من تصدقاتٍ وعُمَرُ
ثم حث على صرف المال في حقوقه واستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ
يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ .

والمعنى: لا تمسك يدك عن الإنفاق -وهذا هو البخل-، ولا تبذر في الإنفاق -
وهذا هو الإسراف- فتصير ملوما يلومك الناس على البخل إن أمسكت يدك عن
الإنفاق، وتصير محسورا فارغ اليد لا تجد ما تنفقه إن أسرفت.

وقد مدح الله عباده الصالحين بتوسطهم في الإنفاق، فقال -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ
إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أي: عدلاً وسطاً
بين التبذير والتقتير.
ولبعضهم^(٣):

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميمٌ
والإسراف مذموم في الشرع يكفيك فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْرِفِينَ﴾.

والسرف السرف إنَّ السرفا عنه نهي الله تعالى وكفى
ولا يجب المسرفين كافي في كفِّ كفِّك عن الإسرافِ
يقول: هذه الآية كافية في أن تكف كفك عن الإسراف.

^(١) إحياء علوم الدين (٩١/٢).

^(٢) البيت (١٩٦).

^(٣) البيت لأبي سليمان الخطابي انظر: كتاب العزلة له ص(٩٧)، ووفيات الأعيان (٢١٤/٢).

والبخل كذلك مذموم، يكفيك فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا
ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ﴾.

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان
قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»^(١).

قَبْلَ السُّؤَالِ اسْخُ لِمَنْ أَتَاكَ (٣٥) وَإِنْ يَكُنْ عَجَلٌ فَاسْتَعْطَاكَ
فَهَلْ جَوَابُ هَاتِ غَيْرُ هَاكَ (٣٦) تَمَّتْ هُنَا نَصِيحَتِي إِيَّاكَ
قبل السؤال: أي قبل الطلب.

اسخُ: أمر من السخاء وهو الجود

لمن أتاك: لمن جاءك مؤملاً عطاءك.

وإن يكن: السائل

عجل: سبق سؤاله عطاءك.

فاستعطاك: سألك العطاء.

فهل جواب هاتِ: هات أي: أعط.

غير هاك: هاك أي: خذ.

حث -رحمه الله- على السخاء والبذل، واقتصر على مرتبتين من مراتب الجود هما
أبلغ مراتبه. المرتبة الأولى: العطية قبل السؤال وهي أفضل مراتب الجود، وقد قيل:
خير النوال ما وصل قبل السؤال.

وقد أشار الناظم إلى هذه المرتبة بقوله: **قبل السؤال اسخُ لمن أتاك.**

والمرتبة الثانية: إجابة السائل بالإعطاء بالفعل دون القول والوعد.

^(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

وهي من مراتب الجود العالية وإن كانت دون المرتبة السابقة.

وقد قال ابن الوردي رحمه الله في لاميته:

أعذب الألفاظ قولي لك: خذ وأمرُ اللفظ نطقي ب: لعل
وقد أشار الناظم إلى هذه المرتبة بقوله: **وإن يكن عجل فاستعطاكا فهل جواب**
هات غير هاكا

وبعد هاتين المرتبتين من البذل مراتب متفاوتة منها: إجابة السائل بنعم مع إنجاز
الوعد، أما مع إخلاف الوعد فهو وصمة وعار، كما قال الشاعر:

إذا قلت في شيء: نَعَمْ فَأَتَمَّهُ فَإِنَّ نَعَمَ دَيْنٍ عَلَى الْحَرِّ وَاجِبٌ
وإلا فقل: لَا تَسْتَرْخِ وَتُخْرِجْ بِهَا لئلا يقول الناس: إِنَّكَ كاذِبٌ
وقال آخر:

لا تقولَنَّ إذا ما لم تُردْ أَنْ تُنِمَّ الوعدَ في شيء: نعم
حسنٌ قول نعم من بعد لا وقبيح قول لا بعد نعم
إِنَّ لا بعد نعم فاحشةٌ فبِلا فابدأ إذا خفت الندم
فإذا قلت نعم فاصبر لها بنجاح القول إن الخلف ذم
ثم إن لم تكن واحدةً من هذه المراتب فالأحسن رد السائل بميسور من القول.
فينبغي لمن سئل وليس عنده ما يعطي السائل أن يحسن القول ويبسط العذر ﴿
وَمَا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ هُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: قولاً
ليناً سهلاً مثل أن تدعو لهم بسعة الرزق أو تعدهم بالعطاء إن رزقك الله مالاً.
فمن لم يكن عنده شيء من المال يكرم به السائل فليعمل بقول المتنبي^(١):
لا خيلَ عندك تُهديها ولا مالٌ فليُسعدِ النطق إن لم تُسعدِ الحالُ
وإن لم يكن شيء مما تقدم فلا أقل من التأسف على عدم إمكان البذل.
كما قال الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - فيما ينسب إليه^(١):

^(١) ديوانه بشرح البرقوقي (٣/٣٩٤).

يا لهف نفسي على مال أفرقه على المُقِلِّين من أهل المروءات
إن اعتذاري إلى مَنْ جاء يسألني ما ليس عندي لِمَنْ إحدى المصيبات
وقد وردت آيات كثيرة في الحث على إنفاق المال في سبيل الله، فمن ذلك قوله
تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ
فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب -
ولا يصعد إلى الله إلا الطيب- فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه كما
يربي أحدكم فلؤه حتى تكون مثل الجبل»^(٢).

والفلو المهر وهو الصغير من الخيل.

ثم قال -رحمه الله-: **تمت هنا نصيحتي إياك**

هذا فيه حسن اختتام وهو أن يكون آخر الكلام عذب اللفظ، حسن السبك،
صحيح المعنى.

وهو من المواضع التي يجب التأنيق فيها وجوبا صناعيا عند البلاغيين؛ لأنه آخر ما
يعيه السمع، ويُرسم في الذهن، فإن كان حسنا تلقاه السمع واستلذه وجبر ما وقع
فيما سبقه من تقصير.

وأحسن الاختتام ما آذن بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى للنفس تشوّف البتة.
قال السيوطي^(٣):

وإن يجئ في الانتهاء مؤذناً بِحَتْمِهِ فهو البليغ الأحسن
وهو المسمى عند البلاغيين ببراعة المقطع، فهذا الشرط فيه حسن الاختتام وبراعة
المقطع.

^(١) ديوانه ص (٢٨).

^(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤).

^(٣) في البيت (٩٩٣) من عقود الجمان.

وفيه محسن من المحسنات اللفظية البديعة عند البلاغيين وهو رد العجز على الصدر.
قال في ديباجة نصيحته: نصيحة من والد حفي بك. وقال في آخرها: تمت هنا نصيحتي إياكا.

ثم انظر إلى ضمير الخطاب في قوله: نصيحة من والد حفي بك وقوله: تمت هنا نصيحتي إياكا كأنه يراك أمامه يخاطبك من بدءة نصيحته إلى آخرها خطاب الحاضر مما يستدعي الإصغاء والعمل بنصحه.

وكأن لسان حاله ينشدك قول صالح بن عبدالقدوس في آخر قصيدته الزينية:
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي فالنصح أغلى ما يباع ويوهب
أو قول أبي إسحاق الإلبيري في آخر تائيته:

جمعتُ لك النصائح فامثلها حياتك فهي أفضل ما امتثلنا
نسأل الله -تعالى- أن يجزي الشيخ حمادا عنا خير الجزاء، وأن يجمعنا به في الفردوس الأعلى من الجنة، وأن ينفعنا بهذا الذي تعلمناه منه، وأن يخرجنا من حيز القول إلى حيز العمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.